الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف –المسيلة

جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

الرقم التسلسلي:...../2018

رقم التسجيل:.....

النخبة المشرقية بين مناهل العلم وميادين السياسة

القاضي الفاضل نموذجا 529هـ-596هـ/1135م-1200م

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر أكاديمي في:

شعبة: تاريخ تخصص: تاريخ القرون الوسطى

إعداد الطالبة: إشراف الأستاذة:

*كريمة مقدود *د.خديجة ثلجوم

لجنة المناقشة:

د. عبد السلام همال	جامعة المسيلة	رئيسا
د. خديجة ثلجوم	جامعة المسيلة	مشرفا ومقررا
د. حفيظة لعياضي	جامعة المسيلة	ممتحنا

السنة الجامعية: 1438-1439هـ/ 2017-2018

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

لا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بأسمى معاني الشكر والعرفان والتقدير لكل من ساعدني في انجاز هذا البحث وعلى رأسهم:

الأستاذة خديجة ثلجوم والتي تفضلت بالإشراف على هذا العمل، وعلى كل المجهودات التي بذلتها، والاقتراحات الوجيهة والملاحظات القيمة التي قدمتها طيلة فترة إعدادي لهذا العمل، والمعبرة شعورها بالمسؤولية وتقديسها لرسالة العلماء وما أنبلها من رسالة.

كما لا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى كل الأساتذة الذين ساعدوني وأخص بالذكر الأستاذ لخضر بولطيف الذي لم يبخل علي بتوجيهاته ونصائحه القيمة،

وأشكر طاقم "مكتبة النجاح" وكل من ساعدني من قريب ومن بعيد.

الإهـــــــــداء

إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك ولا يطيب النهار إلا بطاعتك، ولا تطيب اللحظات إلا بذكرك، ولا تطيب الآخرة إلا بعفوك، ولا تطيب الجنة إلا برؤيتك يا الله جلا جلالك

أهدي ثمرة جهدي إلى من ربياني صغيرة ولم أوف بحقهما كبيرة...

والداي العزيزين حفظهما الله ورعاهما

إلى من شاركني أفراحي وآمالي، أحزاني وآلامي خطيبي الطاهر

إلى إخوتي شهيرة، منير، عبد الله.

إلى صديقتي سليمة

وإلى كل من يحمل لقب مقدود وصغيري وكل من تسعهم مخيلتي ولا تسعهم مذكرتي

مقـــدمـــــة

1- أهمية الموضوع وإشكاليته:

إن المتأمل في الدراسات التاريخية التي تشمل التاريخ الإسلامي في بلاد المشرق في القرن 6هـ/12م، سيلاحظ بأن معظم الدراسات قد انحصرت في رصد تاريخ الشخصيات الفاعلة البارزة مثل شخصية صلاح الدين الأيوبي[1] ونور الدين محمود زنكي[2]...الخ ، وقد أهملت هذه الدراسات بعض الشخصيات والتي كان لها أثر ودور في تحريك الأحداث في ذلك الزمن من بينها شخصية القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني المصري، والتي أنا بصدد دراستها.

ومع أن هناك دراسات أنجزت في هذا الصدد، إلا أنها اقتصرت في معظمها على الدور السياسي لهذه الشخصية[3]، وهذا ما جعل موضعا حقلا خصبا للبحث، وموضوعا جديرا بالدراسة فهو يعالج هذه الشخصية من مختلف الجوانب المميزة لها، وقد حاولت في هذا البحث رصد الأدوار الهامة التي أداها القاضي الفاضل، من حيث التركيز على الجانب العلمي والأدبي إضافة إلى الدور السياسي الذي قام به في عصره، فقد كان القاضي الفاضل يمثل الشخصية المثقفة في ذلك العصر، حيث كان منذ صغره شغوفا بكسب العلم وتحصيله مع الحرص على النبوغ في الأدب من شعر ونثر، وقد مكنه علمه وأدبه إلى الوصول إلى درجة عالية زمن الدولة الأيوبية وفتح له الأبواب للعب ادوار سياسية هامة خلدت اسمه ضمن أهم الشخصيات التي كان لها أثر في التاريخ الإسلامي، خاصة الدور الذي قام به في الجهاد ضد العدوان الصليبي الذي اجتاح

---

[1] من بين هذه الدراسات نذكر: محمود رجب البيومي، صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، عبد الرحمن عزام، صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني، علي محمد الصلابي، صلاح الدين وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس.

[2] علي محمد الصلابي، نور الدين محمود زنكي شخصيته وعمره.

[3] هادية راغب دجاني: القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين الأيوبي وفتوحاته.

المنطقة الإسلامية وأصبح الرجل الثاني في دولة صلاح الدين الأيوبي حيث اعتمد عليه في تدبير دولته وتجهيز جيوشه .

وتتجلى أهمية الموضوع أكثر كونه لم يقتصر على تناول أو التركيز على جانب واحد من هذه الشخصية بل دراستها من الجانبين (العالم والسياسي) ولم أقتصر في دراستي هذه على الإشكال الرئيس ألا وهو النخبة المشرقية بين مناهل العلم وميادين السياسة القاضي الفاضل نموذجا، بل دعمتها بإشكاليات فرعية ومنها ما يتعلق بحياة القاضي الفاضل (أساتذته وعصره) وإلى أي مدى كان لها دور في بناء وتكوين شخصيته وتبنياته؟

وهل مثل القاضي الفاضل دور الشخصية المثقفة في ذلك العصر؟ وما هي إسهاماته العلمية والأدبية؟ وإلى مدى جسد القاضي الفاضل شخصية السياسي المدبر لدولة صلاح الدين الأيوبي؟.

2- الدراسات السابقة:

هناك بعض الدراسات الحديثة التي تناولت شخصية الفاضل بالبحث والدراسة وقد استأنست في بحثي هذا بدراستين كان لهما شأن في تدعيم البحث وهي:

- معالي عبد السلام الحلبي:"رسائل القاضي الفاضل السياسية في عهد صلاح الدين الأيوبي"[4].
- هادية راغب دجاني: "القاضي الفاضل عبد الرحيم البساني"[5].

3- المنهج المتبع:

لدراسة هذه الإشكالية وجب إتباع منهج يساعد على التعمق فيها للتوصل إلى نتائج، لاسيما بعد التطور الذي شهدته العلوم الإنسانية في استخدام مختلف المناهج، وأصبحت البحوث والدراسات التاريخية

[4] شهادة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، 2013.

[5] درجة أستاذ علوم، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1961.

مرتبطة بهذه المناهج، وقد اعتمدت في دراسة هذا الموضوع على المنهج التاريخي مع إعمال آلية التحليل والوصف.

إذ استخدمت التحليل في العديد من المسائل والقضايا كذكر الأسباب التي أدت بالقاضي الفاضل إلى الهجرة من عسقلان إلى مصر وأيضا الدوافع التي أدت به إلى تغيير ولائه خلال وزارة الثانية لمصر من الدولة الفاطمية إلى الدولة الأتابكية مع أسد الدين شيركوه ونور الدين وصولا إلى صلاح الدين الأيوبي كما تطرقت بالدراسة والتحليل إلى بعض رسائل القاضي الفاضل لفهم محتواها وسبب كتابتها والى أين وجهت، كما حللت الظروف التي توفي فيها القاضي الفاضل.

أما آلية الوصف فقد استعملتها في وصف هيأة القاضي الفاضل وذكر صفاته ووصف العصر الذي عاش فيه القاضي الفاضل وهو العصر الذي شهد الحملات الصليبية على العالم الإسلامي والتفكك الذي كان داخل المسلمين، وسقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية.

هيكل الموضوع:

لدراسة هذه الإشكالية قسمت هذا البحث إلى ثلاثة فصول يسبقها فصل تمهيدي وهي على النحو التالي:

الفصل التمهيدي بعنوان "جدل العلم والسياسة في الإسلام" من أجل بحث وفهم الجدل القائم بين رجل العلم ورجل السياسة، وذلك لأنني بصدد دراسة إشكالية تضم في ثنياها شخصية جمعت ما بين تحصيل العلم ومزاولة السياسة، وقد ثبت لي بأنه طوال التاريخ الإسلامي ومنذ صدر الإسلام نجد كل من رجل العلم ورجل السياسة يحاول استتباع الآخر، فرجل السياسة نجده يحاول استتباع رجل العلم

وذلك من اجل إطفاء شرعية على قراراته، بينما نجد رجل العلم في محاولات دائمة للتدخل في الأمور السياسية وذلك لإثبات سلطته وشرعيتها، وقد استمر هذا الجدل قائم بينهما لشدة التداخل بين السلطتين حتى عصرنا الحالي، كما حاولت في هذا الفصل إعطاء أمثلة عن بعض الشخصيات التي حصلت العلم وزاولت السياسة مثل نظام الملك الطوسي، والصاحب ابن العباد وابن العميد.

والفصل الأول تحت عنوان "ترجمة لحياة القاضي الفاضل" ويندرج تحته مبحثان الأول تناولت فيه شخصية القاضي الفاضل مولده ونشأته ورحلته إلى مصر والأساتذة الذين تتلمذ على يدهم هناك كما تطرقت إلى وصف هيأته وصفاته أما المبحث الثاني فتناولت فيه واقعه السياسي تضمن الحروب الصليبية على البلاد الإسلامية والتفكك والصراع داخل الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية.

أما الفصل الثاني فجاء تحت عنوان "القاضي الفاضل عالما وأديبا" يندرج تحته مبحثان الأول تطرقت فيه إلى إسهامات القاضي الفاضل العلمية من بناء المدرسة الفاضلية وإنشاء مكتبة المدرسة الفاضلية ودار الحديث الفاضلية والمبحث الثاني تناولت فيه الجانب الأدبي من شخصيته من شعر ونثر.

وبخصوص الفصل الثالث فقد جاء تحت عنوان"القاضي الفاضل سياسيا ومدبرا" يندرج هو الآخر تحته مبحثين جاء الأول دور القاضي الفاضل زمن الدولة الفاطمية من ترأسه لديوان الجيش ثم ترأسه لديوان الإنشاء بعد وفاة أستاذه ابن الخلال أما المبحث الثاني فكان زمن الدولة الأيوبية تطرقت فيه إلى القاضي الفاضل وتأسيس الإدارة الأيوبية

بدمشق والقاضي الفاضل ودوره في الجهاد وأخيرا القاضي الفاضل بعد صلاح الدين من اعتزال السياسة والدعوة إلى الوحدة.

وختمت البحث بحوصلة ضمنتها جملة من النتائج والاستنتاجات التي توصلت إليها.

5- الدراسة النقدية:

إن دراسة هذا الموضوع كغيره من المواضيع يستوجب الاستئناس بجملة من المصادر والمرجع، وقد اعتمدت بالدرجة الأولى على كتب التراجم والطبقات بحكم طبيعة الموضوع لأنني بصدد دراسة شخصيته فوجب الاعتماد عليها بالدرجة الأولى خاصة تراجم المؤرخين القريبين من الفترة التي أنا بصدد دراستها كما اعتمدت أيضا على مدونة كتب الأدب واستأنست بعض هذه الكتب والتي خدمت الموضوع بطريقة مباشرة، ولم يفتني استعمال كتب التاريخ العام لرصد أهم الأحداث في تلك الفترة والتي لها علاقة مباشرة مع إشكالية البحث.

كتب التراجم والطبقات

أبو العباس، ابن خلكان (ت681هـ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مثل هذا الكتاب مصدرا أساسيا للبحث لاسيما وأن صاحبه كان قريبا جدا من الفترة التي أنا بصدد دراستها، وقد أفادني هذا الكتاب بمعلومات غزيرة عن القاضي الفاضل كما زودني بتراجم عدد كبير من الأعلام الواردة في البحث فكانت تراجمه ذات قيمة كبيرة للبحث.

صلاح الدين خليل، الصفدي (ت764هـ)، الوافي بالوفيات يعتبر هو الآخر مصدرا أساسيا في البحث حيث أورد جملة كبيرة من أخبار القاضي الفاضل، إضافة إلى أساسي في البحث حيث أورد جملة كبيرة

من أخبار القاضي الفاضل، إضافة إلى بعض رسائله، كما يحوي هذا الكتاب على جملة من أشعار القاضي الفاضل وموشحاته.

إضافة إلى استعانتي بجملة من كتب الطبقات الأخرى وذلك لرصد أهم الأساتذة الذين قاموا على التدريس بالمدرسة الفاضلية مثل: جمال الدين القفطي (ت624هـ) أنباه الرواة على أبناه النحاة، وشمس الدين الذهبي (ت748هـ) طبقات القراءة، وعبد العظيم المنذري (ت656هـ) التكملة لوفيات النقلة....الخ.

إضافة إلى جملة من هذه المصادر لمعرفة أهم الشيوخ والمحدثين الذين درسوا بدار الحديث الفاضلية وهم: عبد القادر النعيمي (ت978هـ) الدارس في تاريخ المدارس، رغم أنه مصدر متأخر إلا أنه أفادني بمعلومات هامة عن هذه الدار، إضافة إلى كتاب آخر للذهبي (ت748هـ) المعين في طبقات المحدثين أورد هو الآخر عدد كبير عن هؤلاء المحدثين إلا أنه اكتفى فقط بذكر أسمائهم ولم يذكر أخبارهم، إضافة إلى مصدر لا يقل أهمية وهو كتاب إسماعيل بن كثير (ت774هـ) طبقات الشافعية.

كتب التاريخ والحوليات

لم يفتني الاستعانة بكتب التاريخ والحوليات والتي تناولت الحقبة الزمنية التي أنا بصدد دراستها ومن جملة هاته المصادر نذكر:

محمد بن حامد، العماد الأصفهاني(ت597هـ) سنا البرق الشامي كان هذا المصدر مهما جدا كون صاحبه عاصر فترة القاضي الفاضل وتولى الكتابة بالنيابة عنه لصلاح الدين، كما أن القاضي الفاضل كان يثق به كثيرا لذلك كان يتركه في الكتابة أثناء تغيبه بمصر لأمور الدولة والسياسة ، وبهذا أورد لنا جملة كبيرة من أخباره ورسائله، إضافة إلى أني اعتمدت على كتاب آخر له وهو الفتح القسي الذي يؤرخ للفتوحات والحروب التي قام بها صلاح الدين ضد الفرنج وابتدأه بالتاريخ من سنة 583هـ/1187م وختمه سنة 589هـ/1192م أي سنة وفاة صلاح الدين أي أنني اعتمدت عليه فقط للحديث عن هذه الفتوحات.

شهاب الدين، أبو شامة (ت665هـ) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية يعتبر صاحب هذا الكتاب قريب جدا من فترة القاضي الفاضل وبذلك أرّخ لمختلف الأحداث التي جرت في هذه الفترة ، كما ذكر لنا عدد من رسائل القاضي الفاضل.

إضافة إلى جملة من المصادر التي أرخت لهذه الفترة مثل: تقي الدين، المقريزي (ت845هـ) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا اعتمدت عليه في ذكر العديد من الأحداث والوقائع لكن هذا الكتاب يتوقف سنة 567هـ، واعتمدت على كتاب آخر له وهو كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، إضافة إلى كتاب أبي الحسن ابن الأثير (ت630هـ) الكامل في التاريخ وكتاب إسماعيل ابن كثير(ت776هـ) البداية والنهاية....الخ.

كتب الأدب

استعنت ببعض كتب الموسوعة الأدبية وأهم هذه الكتب أذكر:

شهاب الدين، النويري(733هـ) نهاية الأدب في فنون الأدب يعتبر هو الآخر مصدرا مهما في البحث يحمل ترجمة للقاضي الفاضل وعدد من أخباره ورسائله وجملة من أشعاره.

أبي العباس القلقشندي(ت820هـ) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء يعتبر هذا الكتاب موسوعة أدبية تاريخية، رغم أنه متأخر إلا أنه حفظ لنا جملة كبيرة من رسائل القاضي الفاضل وأشعاره وإضافة إلى أنه يحمل توضيحات عن الدواوين المصرية وعن الكتابة وفنونها وألمع الكتاب، كما أنه يحفظ بعض السجلات التي كتبها القاضي الفاضل كسجل توليه صلاح الدين للوزارة المصرية وكذلك سجل توليه أسد الدين شيركوه للوزارة في عهد الخليفة العبيدي العاضد.

الرسائل والوثائق:

اعتمدت بالدرجة الأولى على رسائل القاضي الفاضل[6] والتي أنشأها بنفسه أو بالنيابة عن صلاح الدين الأيوبي وتشكل هذه الرسائل إحدى الوثائق الهامة التي دونت أحداث الغزو الصليبي، وكذلك الفتوحات التي قام بها صلاح الدين ضد الصليبين في المشرق الإسلامي.

الدراسات الحديثة:

إضافة إلى أنني استأنست بجملة من المراجع الحديثة لإثراء الموضوع من بين هذه الدراسات أذكر:

[6] تحقيق: علي نجم عيسى، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.

هادية دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين الأيوبي وفتوحات هذه الدراسة ركزت فيها الباحثة على مختلف الأدوار السياسية التي لعبها القاضي الفاضل في دولة صلاح الدين وقد استفدت منها كثيرا في هذا الجانب.

إضافة إلى جملة من المراجع الأخرى ذات الصلة بالموضوع وهي سعيد عبد الفتاح عاشور الحركة الصليبية، وعبد الرحمن عزام صلاح الدين وإعادة الإحياء السني، وعمر رضا كحالة معجم قبائل العرب الحديثة والقديمة، ومحمد كرد على خطط الشام، وأحمد بدوي أسس النقد الأدبي عند العرب.....الخ.

العوائق والصعوبات:

من أهم الصعوبات التي واجهتني في هذا البحث هي قلة المادة الخبرية حول إسهامات القاضي الفاضل العلمية فجل المصادر تكتفي بذكر إشارة حول هذه الإسهامات، إضافة إلى عدم تحصلي على ديوان القاضي الفاضل في نسخته الورقية ولا في نسخته الإلكترونية وهذا ما جعلني أستعين ببعض المصادر كالصفدي والنويري والقلقشندي.....الخ للحصول على شعره إضافة إلى الاستعانة ببعض الدراسات الحديثة كعمر فروخ الأدب العربي في المشرق وهادية دجاني القاضي الفاضل رسالة قدمت للجامعة الأمريكية في بيروت.

وفي الأخير أتمنى أني قد وفقت في إضافة جديد للدراسات التاريخية الإنسانية ولو بالشيء القليل، كما لا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى كل من ساعدني في إنجاز هذا العمل المتواضع.

الفصل التمهيدي

جدل العلم والسياسة في الإسلام

الفصل التمهيدي: جدل العلم والسياسة في الإسلام

تمثل إشكالية الجدل القائم بين العلم والسياسة في الإسلام، قضية أسالت الكثير من الحبر، من قبل الباحثين والمفكرين قديما وحديثا.

في البداية ظل الفكر السياسي عند المسلمين حبيس القيم والأفكار والمبادئ والحقوق التي اكتسبتها الخلافة، ومن ثناياها نبتت الفكرة الشائعة بأن الإسلام دين دولة وغدت فكرة إدماج السلطتين الزمنية والدينية وكأنها حقائق الإسلام الثابتة بالرغم من أنه لم يكن للخليفة حق الولاية على عقائد وليس له حق تأويل الشريعة إلا أنه بدأ في صورة الحاكم الزمني والديني معا ينفذ بقداسته إلى وجدان المسلمين أكثر مما ينفذ بسلطانه[1].

أي أنه في فترة الخلافة الراشدة كانت السلطتان العلمية والسياسية مجتمعتين في شخص "الخليفة الراشد" استمرارا لاجتماعهما في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم انفصلت السلطتان مع معاوية فترة الخلافة الراشدة وبداية فترة الملك مع معاوية[2].

يقول ابن عربي في ها الصدد:"فانقطعت الخلافة وصارت الدنيا ملكا تارة لمن غلب وأخرى لمن خلب حتى انتهى الوعد الصادق"[3].

وتظهر لنا مقولة ابن عربي واقع هذا الانفصال بين السلطة العلمية والسلطة السياسة ففي فترة صدر الإسلام كان العلماء هم الأمراء والرعية هم الجند فكان النظام والقوام، ثم انفصلت هاتان السلطتان

---

[1] حسين فوزي ، النجار: الإسلام والسياسة بحث في أصول النظرية السياسية ونظام الحكم في الإسلام، مطبوعات الشعب ثقافة وعلوم، [د.م]، [د.ت]، ص ص 10-11.

[2] علي، أومليل: السلطة الثقافية والسلطة السياسية، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998 ، ص ص 10-11.

[3] أبو بكر محمد بن عبد الله، ابن العربي (ت 543هـ): أحكام القرآن، ط3،تع: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003،ج3 ، ص410.

فصار العلماء فريقا والأمراء فريقا، وصارت الرعية صنفا والجند صنفا آخر فتعارضت الأمور[1].

ومنذ ذلك الحين نأى الخلفاء الجدد بأنفسهم عن التعرض للشريعة أو محاولة تأويلها وتركوا أمرها للفقهاء والعلماء يجتهدون فيها بعيدا عن تناول الحكم أو التعرض للشريعة ولم يرى العلماء والفقهاء لأنفسهم حقا في معارضة الخليفة مادام يلتزم حدود الشريعة ووضعوا بذلك حدا فاصلا بين السلطة الزمنية (السياسية) والسلطة الدينية(العلمية) وظل هذا الحد قائما بين السلطتين حتى بعد أضفى العباسيون على خلافتهم طابع التفويض الإلهي[2].

وإذا بدا هذا الافتراق حقيقة لامناص من الإقرار بها فإلى أي مدى يمكن مجارات ما ذهب إليه بعض الباحثين إلى أنه منذ انقضاء العصر الراشدي انفصلت السلطة العلمية عن السلطة السياسية وسلموا أمرها للخليفة يسوسها على هواه[3].

إن إشكالية السلطة والمعرفة في الإسلام، أو حضور السياسي في المعرفي وما تعكسه من ارتباط عميق بين العلم ومشكلة السلطة قضية أثبتت حضورها في تاريخ الإسلام سيما في الفترات الحرجة المتسمة بالفتنة وانحلال السلطة ونجح أصحاب السلطة السياسية إلى حد ما وعبر فترات طويلة في إقناع رجال العلم بخطورة الاشتغال بهذه السياسة حتى صار بعض هؤلاء العلماء يلعنون السياسة ويدعون إلى ترك السياسة لأهلها.

---

[1] لخضر، بولطيف: فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، دار الصديق، الجزائر، 2015، ص64.

[2] النجار: مرجع سابق ، ص18.

[3] بولطيف: مرجع نفسه ، ص65.

وبالرغم من ذلك فإن الهم السياسي الأكبر هو مشكل السلطة الشرعية ظل هاجسا كامنا وراء الكتابات الفقهية والكلامية والفلسفية في الإسلام مما يعني أن رجل العلم لم ينسحب من الساحة كما كان يود رجل السياسة[1].

من جهة أخرى فقد أبدى رجل الحكم حرصا ثابتا على إعلان ولائه للشرع[2] ، فأي حاكم يحرص على أن يظهر نظامه جامعا للسلطتين وأن سياسته هي بلورة لهذا الجمع[3]، وقد اعترف تاج الدين السبكي بخطورة الاستدراج من قبل رجل السياسة لرجل العلم لما فيه من خطورة وحيل[4].

وبمعزل عن تحكمات النضالات الإيديولوجية ورؤاها الضيقة حاول العديد من الباحثين بحث العلاقة الناشئة بين "رجل العلم"و"رجل الحكم" وفي ظل التطور الجديد الذي عرفته التجربة السياسية الإسلامية فلم يفت بعضهم أن الافتراق الحاصل وإن جرد رجل العلم من سلطة السياسة أوحدَّ من مجالها فما كان ليحدَّ من نطاق عمل الدين فلقد حرص رجل الحكم على إبداء وإعلان ولائه للشرع[5] فقد حاول العديد من الأمراء والسلاطين إبقاء العلماء إلى جانبهم لإضفاء شرعية على قراراتهم وكانت السياسة العمرية (عمر بن عبد العزيز) في تقريب العلماء والركون إلى نصائحهم مضرب الأمثال للسلاطين الحاكمين[6].

ويجب على الملك الفاضل أن يستكثر في مجالسته العلماء والفقهاء من كل طبقة ولا يخلي مجلسه في أوقات فراغه من كتب ينظر فيها وليتعلم أن الأنس بالعلماء إذا

---

[1] عبد المجيد، الصغير: الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام، دار العربي، بيروت، 1994، ص12.

[2] بولطيف: مرجع سابق، ص72.

[3] أوملیل: مرجع سابق، ص11.

[4] الصغير: مرجع نفس، ص15.

[5] بولطيف: مرجع نفسه ، ص66.

[6] نفسه : ص72.

حضروا مجلسه ليس بأقل من الأنس بالمطرب والمغني بل ذلك أوقر وأفضل وأحسن وأنبل وأزين على ما فيه من اكتساب الأجر وجميل النخر[1].

ثم إن تحلي الحاكم بالعلم من أعظم ما يتحبب به إلى الرعية لما رسخ في النفس على الجملة من فضيلة العلم ومحبته من انتسب إليه وإذا عري منه أو فرط في العمل بمقتضى السؤال عنه أخل بالسريرة الفاضلة فينفرون ويستوحشون منه[2].

ورغم الانفصال الذي حدث بين رجل العلم ورجل الحكم منذ انقضاء العصر الراشدي لم ينسحب رجل العلم من الساحة السياسية كما سبق وأشرنا.

وقديما أعرب أفلاطون عن طموح الفيلسوف وهو نموذج الإنسان المالك للعلم نحو امتلاك السلطة واشترط أن يكون رئيس الدولة ومدربها حكيما وبذلك دشن أفلاطون القول بامتلاك صاحب المعرفة العلمية لحق القرار السياسي وسوف يكون لمثل هذه النكسات دورها في إضفاء طابع جدلي على العلاقة بين المالكين لزمام القرار السياسي وبين الخاضعين له خاصة من أرباب الفكر والقلم المشتغلين بالعلم والمعرفة ، وبفضل ضغوط رجل العلم لم تعد السلطة ولا السياسة منطقة محرمة[3].

وقال أبو الأسود: "ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك"[4] ، وهذا بفضل جلالة موقع العلماء من القلوب وفخامة أسمائهم في الصدور ثم إن العلم هو الشيء الذي لا يستغنى عنه في ديانة ولا سياسة ولا صناعة ،

---

[1] أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب، الماوردي (ت45هـ):نصيحة الملوك، تح: خضر محمد خضر، مكتبة الفلاح، الكويت، 1983، ص127.

[2] أبي عبد الله ، ابن الأزرق (ت896هـ): بدائع السلك في طابع الملك، تع: علي سامي النشار، دار الإسلام، القاهرة، 2008، ج1، ص363.

3 الصغير: مرجع سابق، ص7.

4 أبي حامد محمد بن محمد ، الغزالي (ت505هـ): إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت، 2005 ، ص14.

فإذا لم يكن عند الملك علم دينه ومذهبه كان مغلوبا محجوب وربما صارت حجة عدوه تفريقا لجمعه[1].

وقد أصبحت أولى القضايا في كل سلطة في معالجة مشروعيتها وتأسيس شرعيتها مع محاولة نفي تشخيص تلك الشرعية في فرد معين أو فئة متميزة وهو ما يعني الاتجاه نحو تقليص سلطة رجل السياسة وتوسيع سلطات أخرى المتمثلة في الجماعة وأصبحت العلاقة بين رجل العلم ورجل السياسة علاقة ضرورية ودائمة[2].

يقول ابن تيمية :"وأولو الأمر صنفان ، الأمراء والعلماء وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس"[3]، فالعالم والمفكر بالرغم من عدم امتلاكه لزمام القرار فهو مع ذلك يمتلك قدرة على التحليل والتقويم ومؤهل للنقد والتأثير والتوجيه الأمر الذي يجعل من معرفته"سلطة" وبالتالي منافسة تلك التي يتمتع بها رجل السياسة واعتبارا للتداخل بين المعرفي والسياسي وجب عند منظري السياسة في الإسلام الفصل بين مفهوم السياسة ومفهوم القوة فالسياسة الحق هي القيام على الشيء بما يصلحه.

هذا التعريف يوسع مفهوم السياسة ويجعل كل من رجل العلم ورجل الحكم رجل سياسة يقول الفخر الرازي: "السياسة رياسة وعلم السياسة هو علم الرياسة" ومن ذا الذي يستطيع أن ينزع للعلم رياسته للوظيفة الفكرية وقيامه على مصالح الناس وبذلك بدأت السلطة العلمية تمد نفوذها نحو المجال السياسي مما يخلق تسابق بل صراع بين رجل العلم ورجل السياسة في الاستثمار في النص فرجل العلم يحتج على قدرته في تأويله وذاك يدعى امتلاك وسائل حفظه ودفع الأخطار عن أمته[4].

---

1 الماوردي: مصدر سابق ، ص ص ص 121-122-123.

2 الصغير: مرجع سابق، ص7

[3] بولطيف : مرجع سابق ، ص ص63-64.

[4] الصغير : مرجع نفسه ، ص ص 08-09.

وينبغي لنا الإشارة إلى فئة متميزة من العلماء والتي لعبت دورها في التاريخ الإسلامي وهي الأخرى بين العلم والسياسة وهي فئة الكتاب هذا اللفظ كان يطلق على كتاب الدواوين وكان رهان الكاتب هو مدى براعته في المزاوجة بين البلاغة والتبليغ أي مقتضيات الأسلوبية البلاغية وبين مقاصد الحكم[1].

لم يكن الكاتب دائما مجرد صانع لرغبات الحاكم وأوامره فقط بل كان يصل أحيانا إلى التدخل في تكييف رغبات الحاكم أو يقطع له قسطا من السلطة وقد وصل نفوذ بعض الكتاب أحيانا إلى الجمع بين وظائف السيف من تدبير شؤون الجيش وقيادته وبين وظائف القلم مثل ديوان المراسلات والمالية وهو ما كان يعبر عنه "بذو الوزارتين"[2].

بعض الشخصيات التي جمعت بين العلم والسياسة في المشرق الإسلامي.

هناك العيد من الشخصيات الإسلامية التي مارست العلم والسياسة فمثلا بعض الكتاب وصلوا إلى مرتبة الوزير أو أبرز هؤلاء نذكر:

1- نظام الملك الطوسي *(ت 485 هـ)

اشتغل بالحديث والفقه ثم اتصل بخدمة علي بن شاذان وكان يكتب له فكان يصادره في كل سنة فهرب منه وقصد دواوين ميكائيل بن سلجوق والد السلطان ألب أرسلان فدبره أمره وبقي في خدمته عشر سنين فلما مات ألب أرسلان وطد المملكة لولده

---

[1] أوملیل : مرجع سابق ، ص 21.

[2] أوملیل: مرجع نفسه ،ص ص 53-54.

* هو أبو الحسن بن علي بن العباس الطوسي الوزير العالم العادل الملقب بنظام الملك ولد سنة 408هـ وكان من أولاد الدهاقين الذين يعملون في البساتين بنواحي طوس قتل من قبل صبي على هيئة الصوفية في 485 هـ(ينظر:- تاج الدين أبي نصر،السبكي (ت 771هـ): طبقات الشافعية الكبرى ، تح: عبد الفتاح أنجلو ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة،[د.ت]، ج4 ، ص ص 309-312 ؛ أبي العباس، بن خلكان (ت 671 هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس،دار صادر، بيروت، (د.ت)، مج2 ، ص485.)

ملك شاه فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان إلا التخت والصيد مدة عشرين سنة وكان مجلسه عامرا بالفقهاء والصوفية[1].

وحسب رواية تاج الدين السبكي فإن نظام الملك كان على علاقة طيبة مع علي بن شاذان وخدم في الدواوين ونصبه في الوزارة بعد وفاة شاذان هذا الأخير أوصى السلطان ألب أرسلان به فنصبه الوزارة وأخذ في بناء المساجد والمدارس والرباطات كما قام بتدبير مملكة ملك شاه[2].

ملك طائفة الفقهاء بإحسانه فهو أشهر من بنى لهم المدارس وشيد أركانهم، دولته كلها فضل وأيامه جميعها عدل فقد حفّظه أبوه القرآن منذ الصفر وشغله في التفقه على المذهب الشافعي[3]، وقد سمع نظام الملك الحديث وأسمعه وكان يقول:"إني أعلم أني لست أهلا لذلك ولكني أريد أن أربط نفسي في قطار النقلة لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم[4]".

2- ابن العميد(ت 360 هـ)

إضافة إلى وجود شخصية أخرى جمعت بين ما يسمى بكفاية السيف والقلم وهي شخصية الأديب ابن العميد* وزير الدولة أبي علي الحسن بن بويه بعد أبيه ثم ابنه مؤيد الدولة بويه الرّي وأصفهان وقد ألقي ركن الدولة مقاليده إليه وعول في تدبير السيف والقلم عليه فلما مات ركن الدولة وقام مقامه ابنه مؤيد الدولة جعل الصاحب ابن عباد وزيره

---

[1] ابن خلكان: مصدر سابق، ص128.

[2] السبكي: مصدر سابق ، ص312.

[3] السبكي: مرجع نفسه ، ص309-312.

[4] ابن خلكان: مصدر نفسه، ج2 ، ص485.

* هو علي بن محمد بن الحسن بن محمد أبو الفتح بن العميد الملقب بذي الكفايتين كفاية السيف وكفاية القلم هو من الكتاب الشعراء الأذكياء وكان طيب الأخلاق وكريم ولد سنة 338هـ وتوفي بعدما قبض عليه وعذب في سنة 360 هـ(ينظر:- شهاب الدين، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تح: أحمد فريد عيسى بك: دار المأمون، مصر، [د.ت] ج14، ص191 ؛ خير الدين الزركلي: الأعلام قاموس تراجم ، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 2002، ج4،ص225.)

وخلع ابن العميد فكره موضعه فبعث الجند على الشعب وهموا بقتل الصاحب فأمره مؤيد الدولة بالعودة إلى أصبهان ونتيجة ميل القواد والعساكر لابن العميد كتب عضد الدولة إلى أخيه مؤيد الدولة من أجل القبض عليه واستصفاء أمواله وعذب بأبشع الطرق فأول ما عمل به أن سمل إحدى عينيه ثم نكل به[1].

3- الصاحب ابن عباد.

كما لا يفوتنا أن نشي إلى شخصية أخرى وهي شخصية الصاحب ابن عباد* كان نادرة الدهر وأعجوبة العصر أخذ الأدب عن أبي الحسن أحمد بن فارس اللغوي وعن ابن العميد قال أبو بكر الخوارزمي في حقه: الصاحب نشأ من الوزارة في حجرها ودب ودرج من وكرها ورضع أفاويق درها وورثها عن آبائه، ولقب بالصاحب لأنه كان يصحب ابنه العميد وذكر الصبائي في كتاب التاجي أنه قيل له الصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة بن بويه.

كان وزيره بعد ابن العميد وكان مبجلا عنده ومعظما نافذ الأمر[2] وقد غلب عليه الأدب[3].

ومها يكن فإن الكتابة ظلت محكومة بأصلها وهو الخدمة فالكاتب خديم الخليفة وقد قال الجاحظ"إن الكتابة لا يتقلدها إلا تابع ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخديم" وقد يقال إن كلامه تحاملا على الكتاب لأنه لم ين يحبهم ومع ذلك فإن قوله يكشف عن حقيقة تاريخية هي إن الكاتب حتى وإن وصل إلى سلطة ما فهي مستظلة بسلطة الحاكم

---

[1] الحموي: معجم الأدباء ، مصدرسابق ، ج14، ص ص193-194.

* هو أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن عباد ابن إدريس الطالقاني ولد سنة 326هـ وتوفي سنة 385هـ له العديد من المصنفات"المحيط" في اللغة و"الكافي" في الرسائل وكتاب "الوزراء" وكتاب"أسماء الله وصفاته" وقد جمعت رسائله في كتاب سمي المحتار من رسائل الوزير ابن عباد (ينظر:- ابن خلكان: مصدر سابق، مج1، ص228 ؛ الزركلي: مرجع سابق، ج1 ، ص316).

[2] ابن خلكان: مصدر نفسه، ص229.

[3] الزركلي: مرجع نفسه، ص316.

أما سلطته العلمية فقد كان ينافس بها أصناف السلطات العلمية الأخرى خصوصا أقواها وهي سلطة الفقيه[1].

وقد اعتبر الكتاب الأوائل الحكام العرب جدد في السياسة، باعتبار أن معظم هؤلاء الكتاب كانوا من الفرس، فلابد أن يتعلموا وقد قدّموا تعليمهم السياسي في شكل نصائح وحكم وقد انتشر أدبهم السياسي في فقههم السياسي مثل الماوردي يعتبر منظر لمؤسسة الخلافة اجتهد في إغناء تنظيره الديني للسياسة بروافد من الأدب السياسي الذي وضعه الكاتب[2].

ويعتبر المفكر الحداثي حسن حنفي كل من المفكر والمثقف والفقيه والعالم والقاضي والإمام كلهم لهم رسالة واحدة هي الإبقاء على الحق والتذكير به ، كما اعتبر السلطة العلمية هي السلطة الفعلية الدائمة التي تراقب الحكام ويستطيع المفكر والعالم حماية نفسه من بطش السلطان بإتباع أساليب التخفي في الكتابة عن طريق الرمز والمجاز كما يفعل الصوفية والأدباء ويمكنه الاعتماد على الأدب الشعبي الأمثال العامة والسير والقصص بل النكات الشعبية التي تسخر من الحكام وتنقد أفعالهم[3].

وعلى هذا الأساس وحتى لا نقع في الأيديولوجية نعبر بأن الجدل بين العلم والسياسة والذي يعكس العلاقة بين"رجل العلم"و"رجل الحكم" قد اتخذت أشكالا اختلفت من مرحلة إلى أخرى ففي مرحلة الخلافة الراشدة كانت السلطتان مجتمعتان في شخصية الخليفة الراشد وبانقضاء مرحلة الخلافة الراشدة وبداية مرحلة الملك مع معاوية انفصلت السلطتان عن بعضهما لكن رغم الانفصال إلا أننا لا ننفي التداخل الذي حاصل بين السلطتين.

[1] أوملیل: مرجع سابق ، ص54.

[2] نفسه .

[3] عبد الجبار الرفاعي: الفكر الإسلامي المعاصر، دار الفكر، دمشق،2000 ، ص ص245-246.

الفصل الأول

ترجمة لحياة القاضي الفاضل

المبحث الأول: شخصية القاضي الفاضل

أولا: نسبه ومولده ونشأته

ثانيا: هجرته إلى مصر وأساتذته

ثالثا: صفاته ووصف هيئته

المبحث الثاني: واقعه السياسي

أولا: الحروب الصليبية

ثانيا: التفكك والصراع داخل الخلافة الفاطمية

ثالثا: التفكك والصراع داخل الخلافة العباسية

المبحث: الأول: شخصية القاضي الفاضل

أولا: نسبه مولده ونشأته

1) نسبه:

هو المولى الإمام العلامة البليغ القاضي الفاضل ، محي الدين يمين المملكة سيد الفصحاء ، أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن أحمد بن المفرج اللخمي[1] ، ابن القاضي الأشرف بهاء الدين أبو المجد علي ابن القاضي السعيد أبو محمد الملقب بمحير الدين[2] البيساني الأصل، العسقلاني المولد، المصري الدار، صاحب ديوان الإنشاء ووزيره السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب[3]، ويذكر بأن مولده وأصله بعسقلان وقد قيل له البيساني لان والده ولي القضاء ببيسان [4].

ينتسب عبد الرحيم إلى قبيلة لخم* العربية أما جغرافيا فينتمي إلى مدينتين[5] .

في فلسطين هما بيسان** وعسقلان*** وقد ولد جده الأكبر في مدينة بيسان كما ولد فيها جده القاضي السعيد محمد بن الحسن سنة 460هـ/ 1067م وعمل فيها شاهد

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، الذهبي (ت748هـ): سير أعلام النبلاء، تح: بشار عواد معروف ومحي هلال السرحاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984، ج21 ،ص339-339.

[2] ابن خلكان: مصدر سابق، مج3 ،ص158.

[3] صلاح الدين خليل أبيك، الصفدي (ت764هـ): الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000، ج18، ص201.

[4] الذهبي: سير أعلام النبلاء ، مصدر نفسه ، ص339.

* هي قبيلة كانت مساكنها متفرقة وأكثرها بين الرملة ومصر في الجفارو ومنها في الجولان ومنها في حوران ومن بلادهم بفلسطين رفع وحدس بالشام ونزل قوم منه بيت المقدس (ينظر: عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط8، مؤسسة الرسالة،بيروت،1997،ج3 ، ص1011-1012).

[5] هادية دجاني شكيل: القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني (526هـ-596هـ/1131م-1199م) دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية،فلسطين،[د.ت]، ص36.

قضاء أو قاضي فالعائلة كانت ذات مكانة مرموقة حيث كان منصب القضاء أعلى المناصب الإدارية وعاشت عائلة القاضي السعيد محمد بن الحسن في بيسان [1] حتى سنة 492هـ/4089م عندما حاصر الفرنج بيت المقدس بعدما ملكوا الرملة وخربت وقاموا بإحراق المصاحف وآخذو من الصخرة قناديل الذهب والفضة[2].

وبعدما اجتاح الفرنج بيت المقدس هاجرو أهالي بيسان في اتجاهين الشام ومصر والمدن الساحلية الفلسطينية الواقعة تحت الخلافة الفاطمية ولاسيما عسقلان حيث توجهت عائلة القاضي الفاضل كغيرهم من المهاجرين ووصلوا إليها في سنة 493 هـ/1099م بعد عناء طويل تحملت فيه عائلة البيساني مرارة الهجرة واللجوء وعدم الاستقرار فتحول الشعور لديهم إلى إصرار على الصمود والمقاومة للدفاع عن عسقلان المدينة الوحيدة الصامدة أمام القوات الفرنجية[3].

وقد ولد أبو القاضي الفاضل في عسقلان في الثاني عشر من جمادي الآخرة سنة 514هـ/1107م[4] ، بعد هجرة العائلة بنحو ثمانية أعوام وكان يدعى القاضي الأشرف، كما توفي جده فيها في مستهل ربيع الآخر سنة 511هـ 1118م[1].

** بيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي ويقال لها لسان الأرض وهي بيت حوران وفلسطين وتوصف بكثرة النخيل وهي بلدة حارة أهلها سمر الألوان (ينظر: شهاب الدين، ياقوت الحموي (ت626هـ): معجم البلدان، دار صادر،بيروت، 1977،مج1 ، ص527).

*** عسقلان: هي مدينة في الإقليم الثالث من جهة المغرب وهي اسم أعجمي وتقع بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحرين غزة وبيت جبرين يقال لها عروس الشام (ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر نفسه،مج4 ، ص 136؛ أبي يعقوب إسحاق، اليعقوبي (ت284هـ): البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002 .ص166).

[1] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق ، ص37.

[2] تاج الدين محمد بن علي يوسف ، ابن ميسر(ت677هـ): أخبار مصر، تح:ابن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ،[د.ت] ، ص123.

[3] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع نفسه ، ص37.

[4] تقي الدين أحمد بن علي، المقريزي (ت 845 هـ): اتعاظ الحنفا بالأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، ط2، تح: محمد حلمي أحمد، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1996، ج03 ، ص200.

2) مولده ونشأته:

ولد عبد الرحيم بعسقلان[2] يوم الاثنين في الخامس عشر من جمادي الآخرة سنة 529هـ/1135م كما تذكر معظم المصادر[3] وقد عاش ما يقارب خمسة عشر عاما في كنف والديه في عسقلان وكان يحب الكتابة كما درس القرآن والحديث وديوان الحماسة لأبي تمام (ت231هـ) في جوامع المدنية[4] وقد كانوا ثلاثة إخوة احدهم كان بالإسكندرية ومات بها وخلف من الخواتم صناديق ومن الحصر والقدور والخزف بيوت مملوءة وكان متى رأى خاتما اجتهد في تحصيله، أما الأخ الثاني فكان له هوس مفرط في تحصيل الكتب وكان عنده مائة ألف كتاب أما الثالث فهو عبد الرحيم وكان يحب الكتابة فقصد مصر ليشتغل بالأدب وقال الشعر والمراسلات وخدم الأكابر[5].

وفي رواية الصفدي يذكر بأن عبد الرحيم كانت له أخت وأخ اللذان لحقا به إلى الإسكندرية وأقاما عنده بعدما سيطر الفرنج على عسقلان[6].

خلال الفترة التي قضاها عبد الرحيم في عسقلان كان المسلمين في الشام ومصر يعانون من توالي الهزائم على الأراضي الإسلامية ، إلى أن ظهر عماد الدين زنكي نادى للجهاد وكسر الفرنج في الرها وحررها سنة 539هـ/1144م وقد كان عمر عبد الرحيم عشرة أعوام

---

[1] ابن ميسر: مصدر سابق ، ص114.

[2] شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، النويري (ت733هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: علي بوملحم، دار الكتب العلمية، بيروت،[د.ت]،ج8 ، ص01.

[3] ابن خلكان: مصدر سابق، مج03 ، ص161 ؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج21 ، ص338 ؛ الصفدي: مصدر سابق، ج18، ص202.

[4] شهاب الدين، ابن عماد (ت1089 هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، 1989، ج06 ، ص531.

[5] ابن عماد: مصدر نفسه، ج6.ص531 ؛ الذهبي: سير أعلا النبلاء: مصدر نفسه،ج21،ص343.

[6] الصفدي: مصدر سابق ،ج18 ، ص203.

وكغيره من أهل عسقلان تفاعل مع انتصارات عماد الدين زنكي وأصبحت نظرته إلى القائد المجاهد تتمثل في شخصية عماد الدين ثم صلاح الدين فيما بعد[1].

ونجد أن آراء عبد الرحيم في الجهاد والمقاومة وجدت بذورها في هذه الفترة المبكرة من حياته إضافة إلى نشأته الدينية التي حصل عليها في كنف والديه كل هذه النقاط ساهمت في تكوين شخصيته القيادية وحنكته السياسية في التدبير والإدارة.

ثانيا: هجرته إلى مصر وأساتذته:

هاجر عبد الرحيم إلى مصر سنة 543هـ1148 من أجل التدرب على الإدارة وتعلم فن الكتابة والإنشاء[2] ، وقد كان والده قاضيا بعسقلان وجرت العادة أن يقوم أصحاب الدواوين بإرسال أبنائهم إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة لما له من سمعة حسنة فأرسله والده إلى الديار المصرية فاشتغل بها بكتابة الإنشاء[3].

ويسرد لنا ضياء الدين بن الأثير الموصلي الحديث الذي دار بينه وبين عبد الرحيم بمدينة دمشق قال:"حدثني عبد الرحيم بن علي البيساني رحمه الله ، بمدينة دمشق في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة- وكان إذ ذاك كاتب الدولة الصلاحية- فقال:"كان فن الكتابة بمصر زمن الدولة العلوية غضا طريا، وكان لا يخلو ديوان المكتبات من رأس برأس مكانا وبيانا، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا وكان من العادة أن كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشدا شيئا من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن

---

[1] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي ، مرجع سابق .ص40 ؛ النويري: مصدر سابق،ج8، ص06 ؛ أبي الحسن علي بن أبي الكرم، ابن الأثير (ت630هـ): الكامل في التاريخ، ط4 ، دار الكتاب العلمية، بيروت، 2003، ج 09، ص331.

[2] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق ، ص42.

[3] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل، بن كثير (ت774هـ): البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر،[د.م]،1998، ج16 .ص689.

الكتابة، ويتدرب، ويرى ويسمع، فأرسلني والي، وكان إذ ذاك قاضيا بثغر عسقلان- إلى الديار المصرية في أيام الحفاظ وأمرني بالمسير على ديوان المكاتبات وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجلا يقال له ابن الخلال"[1].

عندما وصل عبد الرحيم إلى مصر ذهب إلى الديوان ومثل بين أيدي ابن الخلال الذي رحب به وساعده على تنمية مواهبه[2].

عاش عبد الرحيم الأعوام الخمسة الأولى في مصر (543هـ-549هـ/1147م-1154م) بين مدينتي الفسطاط(مصر) والقاهرة وقد شهد في كل منهما حياة علمية ودينية مزدهرة مختلفة عما شاهده في عسقلان فقد كان في مصر عدة جوامع كالجامع العتيق المعروف بجامع عمرو والجامع الطولوني بناه أحمد بن طولون سنة 259هـ/873م على الجبل المعروف بجبل يشكر وكانت هذه الجوامع مركز للعبادة والعلم[3]. كما وجد بهذه الجوامع مجموعة من الزهاد من بينهم الكيزاني (ت562هـ) أديب شافعي له ديوان من الشعر أكثره في الزهد[4] إضافة إلى وجود زاهد آخر عرف بزين الدين علي بن نجا الفقيه الحنبلي ، وقد تعرف عبد الرحيم على هؤلاء الزهاد والعلماء، وانظم إلى ديوان الإنشاء في القاهرة لهذا اضطر إلى الانتقال يوميا بين الفسطاط والقاهرة وكان يسافر على متن حمار يقصد القاهرة صباحا ويغادرها مساءا المسافة تزيد عن الميلين[5].

أساتذته:

---

[1] أبو الفتح نصر الله، ضياء الدين بن الأثير(ت 637هـ): الوشي المرقوم في حل المنظوم،تح: يحيى عبد العظيم، شركة الأمل، 2004 ، ص ص 179-180.

[2] ابن خلكان: مصدر سابق، مج07 ، ص220.

[3] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي ، مرجع سابق ، ص42؛ أبي العباس أحمد، القلقشندي(ت 821هـ): صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1914 ، ج03 ، ص ص341-344.

[4] ابن خلكان: مصدر سابق، مج04 ، ص461-462 ؛ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن ثغري بروي الأتابكي(ت874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب العلمية، بيروت 1992،ج05 ، ص349.

[5] دجاني: القاضي الفاضل ودوره التخطيطي، مرجع نفسه ، ص ص49-50.

تتلمذ عبد الرحيم في مصر على يد أبرز الأساتذة وأكثرهم خبرة في المكاتبات والدواوين ومن أهم الأساتذة الذين تتلمذ على يدهم نذكر:

ابن الخلال: هو أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال، الملقب بالموفق صاحب ديوان الإنشاء بمصر، في دولة الحافظ أبي الميمون هو ناظر مصروله قوة على الترسل يكتب كما يشاء، عاش كثيرا وعطل في آخر عمره وأضر ولزم بيته[1].

وحالما استقر عبد الرحيم في مصر قصد ديوان الإنشاء في القاهرة وقابل ابن الخلال فاستقبله بكل لطف وحفاوة ثم استفسر عن أهدافه فرد عليه بأنه قصده للتدرب على الكتابة والإنشاء والإدارة[2]، فقال له :" ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات؟ فقال له:"ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة"فقال له:"في هذا بلاغ" ثم أمره بملازمته وطلب منه أن يحل شعر الحماسة لأبي تمام ففعل[3] وقد لاحظ ابن الخلال نبوغ تلميذه الصغير فوجهه خير توجيه ودربه على فنون النشر والكتابة الديوانية[4].

وعندما طعن ابن الخلال في السن وعجز عن الحركة انقطع في بيته ويقال بأن عبد الرحيم كان يرعى له حق الصحبة والتعليم فكان يجري عليه ما يحتاج إليه إلى أن مات[5] وفي جمادي الآخرة سنة 566هـ/1169م وتولى بعده رئاسة ديوان الإنشاء[6].

---

[1] ابن خلكان: مصدر سابق، مج07 ، ص219 ؛ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، الذهبي (ت748هـ) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تح: عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1995،ج39 ص261.

[2] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي ، مرجع سابق ، ص43.

[3] ابن خلكان: مصدر نفسه ، ص219.

[4] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي ، مرجع نفسه ، ص43.

[5] ابن خلكان: مصدر نفسه ، ص225.

[6] ابن العماد: مصدر سابق، ج06 ، ص363.

1) ابن قـادوس:

هـو القاضـي أبـو الفـتح المصـري الكاتـب صـاحب ديـوان الإنشـاء بالـديار المصـرية أصـله مـن دميـاط وهـو أحـد مـن اشـتغل عليـه القاضـي الفاضـل[1] وكـان يعظمـه ويصـفه بـذا البلاغتـين[2] وقـد ذكـر لـه صـاحب كنـز الـدرر الـداوداري أبيـات مـن الشـعر[3] وقـد درب ابـن قـادوس القاضـي الفاضـل علـى البلاغـة وقواعـد اللغـة العربيـة مـن نحـو وصـرف لأن هـذه العلـوم رأس مـال الكاتـب وكلامـه وكنـز إنفاقـه[4] ويـذكر الـذهبي فـي كتابـه تـاريخ الإسـلام أن ابـن قـادوس لـم يكـن يعطيـه وقتـا كافيـا فكـان القاضـي الفاضـل يرافقـه فـي أثنـاء ركوبـه مـن الـديوان بالقـاهرة إلـى الفسطاط(مصـر) ويتباحـث معـه فـي جميـع الأمـور المتعلقـة بفنـون الكتابـة والآداب[5] وعنـدما تـوفي ابـن قـادوس فـي فـي سـنة (553هـ/1157م) رثـاه القاضـي الفاضـل بقصـيدة طويلـة أشـار فيهـا على فضائله عليه.

أيا نازحا أفنى نواضرنا ويا بارحا أفنى خواصرنا برحا

ويا من خسرت القلب إذا رمت وصله ويا ليت لو كانت سلامته ريحا[6].

---

[1] الذهبي: تاريخ الإسلام ، مصدر سابق، ج38 ، ص66.

[2] شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ، أبي شامة (ت665هـ): كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزيبق ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1997 ، ج01 ، ص330.

[3] أبي بكر بن عبد الله بن أبيك، الداوداري: كنز الدرر وجامع الغرر الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، تح: صلاح الدين المنجد ، المعهد الألماني للآثار، القاهرة ، 1961 ، ج06 ، ص596.

[4] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق ، ص57.

[5] الذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر نفسه، ج38 ، ص66.

[6] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق، ص44.

2) ابن حديـد:

غادر عبد الرحيم البيساني العسقلاني القاهرة سنة 549هـ/1154م وتوجه إلى الإسكندرية[1] وكان السبب في تقدمه أن أباه يتولى القضاء بعسقلان فكاتبه السلطان بمصر بالأخبار فاتفق أن والي عسقلان أطلق أسيرا له قيمة فتعلل عليه المصريون كونه لم يخبر بخبره فاستحضر إلى القاهرة وصودر حتى إستصفى ماله ولم يبق له فأصابته فجعة فمات ليلة الأحد 11 ربيع الأول 546هـ ودفن بسفح المقطع[2] .

ويروي الصفدي أن القاضي الفاضل بقي هو وأخت له وأخ إلى غاية من الاختلال وسوء الحال والفقر فألجأه الحال إلى أن يمشي راجلا إلى الإسكندرية وقصد ابن حديد القاضي والناظر بها[3] وعرفه بوالده فعرفه بالسمعة فاستكتبه ابن حديد وأطلق له معلوما وبقيت كتب ترد إلى مجلس الخلافة بخط الفاضل وهي مشحونة البلاغة فكشف عن ذلك ابن الخلال والجليس ابن الحباب اللذان كان في ديوان المكاتبات ويروي النويري أن صاحب ديوان المجلس الأثير بن بنان يحكي أنه دخل على الظافر فأمره أن يكتب لابن حديد بقطع يد كاتب بسبب أنه جعل بين السطرين الأولين مقدار شبر وهذا سوء أدب فقال: الأثير للظافر يا أمير المؤمنين تأمر بإحضار الكتب فلما قرأها الأثير علم فضل الفاضل فقال له: هذا الكاتب لم يحصل منه سوء أدب وإنما حسد علا بلاغته فعمل على أذاه فقال: أكتب لابن حديد يسيره إلينا لنستخدمه فصار من كتاب الدرج في أواخر الدولة العبيدية[4].

---

[1] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي ، مرجع نفس، ص69.

[2] الصفدي: مصدر سابق ،ج18 ، ص203 ؛ ابن خلكان : مصدر سابق، مج07 ، ص221 ؛ النويري: مصدر سابق، ج29، ص07.

[3] الصفدي: مصدر نفسه، ج18 ، ص203.

[4] النويري: مصدرسابق، ج29 ، ص07.

وتذكر المصادر أن القاضي الفاضل بحكم طبيعة منصبه أن يخالط الكتاب في الأصقاع المختلفة ويقف على المذاهب الكتابية المتباينة في الشام والعراق ومصر لذلك نجد أنه استحدث طريقة جديدة بناها على أصول طريقه العميدي* ومازها بالإغراق في التورية والجناس حتى أصبحت الكتابة في عهده طلاء من زخرف اللفظ وبهرت هذه الطريقة العقيمة عباد الصفة وأشباه الكتاب وورطوا أنفسهم فيها وظل هذا المذهب غاشيا على العيون حتى عصرنا الحديث فزال على التدرج بتأثير ابن خلدون وتقليد الآداب الفرنجية[1].

ويفهم أن القاضي الفاضل رغم تميزه بطريقة فريدة في الكتابة بناها على أصول ابن العميد والتي تميزت بقوة البلاغة والجناس والسجع والطباق فقد انتقد بشدة على هذه الطريقة والتي وصفها النقاد المعاصرون بالطريقة العقيمة.

ثالثا: صفاته ووصف هيئته:

تميز عبد الرحيم بجملة من الصفات التي جعلت منه فريد عصره فقد كان واسع الإطلاع غني المعرفة على مستوى رفيع من الثقافة والآداب والتمسك بعروة الدين[2] كثير الصدقة والعبادة وله أوقاف كثيرة على الصدقة وفك الأساري وكان يكثر الحج والمجاورة مع انشغاله بخدمة السلطان[3].

---

* العميدي: هو محمد بن أحمد بن محمد أبو سعد العميدي أديب نحوي لغوي مصنف سكن مصر له أدبيات مات يوم الجمعة بخمس خلون من جمادي الآخرة سنة 433هـ/1041م تولى ديوان الترتيب وعزل ثم تولى ديوان الإنشاء بمصر أيام المستنصر سنة 432هـ (ينظر: ياقوت الحموي: معجم الأدباء ، مصدر سابق ، ج17، ص212).

[1] أحمد حسين ، الزيات: تاريخ الأدب العربي: دار نهضة مص، القاهرة ،[د.ت] ، ص258.

[2] مجير الدين عبد الرحيم البيساني ،القاضي الفاضل (ت596هـ): رسائل القاضي الفاضل، تح: علي نجم الدين عيسى، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005 ، ص24.

[3] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج10 ، ص268.

كان متقللا في مطعمه ، ومنكحه ، وملبسه ، لباسه البياض ، يكثر تشييع الجنائز وعيادة المرضى، وزيارة القبور، ولم يكن له انتقام ضد أعدائه إلا بالإحسان ، كما أعان طلبة العلم الشافعية والمالكية عند داره بالمدرسة ، إضافة إلى مساعدته للأيتام بالكتاب[1]، كان يواظب كل يوم على ختمة كاملة مع ما يزيد عليها من نافلة، كان رحيم القلب حسن السيرة، طاهر القلب والسريرة، كثير اقتناء الكتب[2].

وقد برع بعلم الأدب والرسائل بحيث صار أوحد زمانه وكان صلاح الدين يقول في ملأ من الناس:"لا تظنو أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل" وكان من شدة تدينه يستعين بآيات الكتاب العزيز في كثير من رسائله[3].

كما أنه كان نزيها عفيفا نظيفا، قليل اللذات، كثير الحسنات، وكان زاهدا في لباسه وحياته بحيث كان لباسه لا يساوي دينارين ولا يركب معه أحد لا يصحبه سوى غلام له كان محبا للغرباء وكان من كثرة حبه للكتب أنه كان لديه نساخ ومجلدون لا يسأمون وقد بلغ عدد كتبه مائة ألف كتاب قبل موته بعشرين سنة[4].

كان ضابط الملك بآرائه، ورابط السلك بآلائه ذو وفاء ومروءة وصفاء وفتوة وهو من الأولياء الذين خصو بالكرامة[5] قال ابن العماد الأصفهاني في حقه:"رب القلم والبيان والسن واللسان والقريحة الوقادة والبصيرة النقادة والبديهة المعجزة والبديعة المطرزة والفضل الذي ما سمع في الأوائل بمن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره أو جرى في مضماره فهو

[1] الصفدي: مصدر سابق،18 ، ص202.

[2] ابن كثير:البداية والنهاية، مصدر سابق، ج16 ، ص699.

[3] شمس الدين أبي المظفر يوسف ، سبط ابن الجوزي(ت654هـ):مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: إبراهيم الزيبق ، دار الرسالة العالمية ، دمشق ، 2013،ج22 ، ص83.

[4] ابن عماد: مصدر سابق ، ج06 ، ص ص531-532.

[5] الذهبي: سير أعلام النبلاء ، مصدر سابق، ج21 ، ص431.

كالشريعة المحمدية التي نسخت للشرائع ورسخت بها الصنائع، يخترع الأفكار ويفترع الأبكار ويطلع الأنوار ويبدع الأزهار "[1].

كان فصيحا بليغا قال النويري في فصاحته:"كل فاضل بعد الفاضل فضله وكل قد عرف له فضله وستقف إن شاء الله من كلامه على السحر الحلال فتروي صداك من ألفاظه بالعذب الزلال"[2].

ويفهم من جملة النصوص التي بين أيدينا أن القاضي الفاضل كان ذو أخلاق عالية وأفعاله هي التي عكست فضائله كمساعدته للأيتام وفك الأسرى ومساعدة طلاب العلم وكل هذه الأخلاق راجعة إلى تدينه وتمسكه بالأخلاق الإسلامية.

وقد مدحه الشاعر عمارة اليمني في أبيات من الشعر:

لك الحمد أن أرضاك قول لك الحمد ومالي وسع غير ذاك ولا جهد

أنا الحر يا عبد الرحيم فإن جرى حديث الذي أوليتني فأنا العبد[3]

أما فيما يخص هيئة فيذكر ابن عماد انه كان ضعيف البنية رقيق الصورة له حدبة يغطيها الطيلسان وكان فيه سوء خلق يكمد به نفسه ولا يضر أحد به[4] وفي ذلك يقول ابن عنين*:

قد أصبح الملك ماله سبب في الناس إلا البغاء والحدب

سلطاننا أعرج وكاتبه ذو عمش والوزير منحدب

---

[1] ابن خلكان: مصدر سابق ، مج03 ، ص159.

[2] النويري: مصدر سابق، ج8 ، ص03 ؛ ابن ثغري بردي : مصدر سابق،ج06 ، ص141.

[3] نجم الدين أبي محمد، عمارة اليمني(ت 568هـ): النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، مطبع مرسو،شالون،1897،، ص218.

[4] ابن عماد: مصدر سابق، ج06 ، ص531.

* ابن عنين: شرف الدين محمد بن نصر الله بن مكارم بن عنين الأنصاري الدمشقي الأديب الشاعر مات سنة 630هـ عن إحدى وثمانين سنة كان فحول الشعراء ولاسيما في الهجو وقد دخل إلى العجم واليمن مدح الملوك(ينظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج22 ، ص363).

وقال أيضا:

إن كلبة ولدت سبعة فقف واستمع أيها السائل

وإن كلبة ولدت تسعة تزاوجن فالفاضل الفاضل

ويذكر الصفدي أنه لا يوجد أحد كان في عصره من الشعراء المشهورين إلا قد مدح القاضي الفاضل[1].

ومن أبرز الشعراء الذين محدوا القاضي الفاضل نذكر ابن سناء الملك[2*] ويذكر الذهبي كان القاضي الفاضل أحدب فحدثني شيخنا- أبو إسحاق الفاضلي شيخ القراء العسقلاني ثم الدمشقي(ت692هـ) كان من الشيوخ البارزين في القراءات- أن القاضي الفاضل ذهب في سفارة إلى صاحب الوصل فأحضرت فواكه فقال بعض الكبار متهكما: "خياركم أحدب" يوري بذلك، فقال الفاضل خسنا خير من خياركم[3].

تبين النصوص التي بين أيدينا أن القاضي الفاضل كان قوي الشخصية في الرد على الحاقدين ولم يكن يتأثر بسخريتهم منه من خلال استغلال الحدبة التي كانت في ظهره واتخذوها محل سخرية فقد تحلى القاضي الفاضل بشخصية قوية لها مكانتها إضافة إلى الصفات الحسنة التي تميز بها القاضي الفاضل وعلمه وأدبه وفصاحته غطت على العيوب الجسمانية وهي التي واصلته إلى المكانة العالية التي

---

[1] الصفدي مصدر سابق ، ج18 ، ص ص205-206.

[2] نفسه.

[*] ابن سناء الملك: القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل سناء الملك الشاعر المشهور المصري صاحب الديوان الشعر البديع والنظم الرائق كان كثير التخصص والتنغم له ديوان جميعه موشحات سماه "در الطراز" وجمع شيئا من الرسائل الدائرة بينه وبين القاضي الفاضل وفيه كل معنى مليح توفي في رمضان سنة 608هـ/1211م(ينظر: ابن خلكان:مصدر سابق، مج6 ،ص61؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق،ج21ص481).

[3] الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج21 ، ص342.

حظي بها زمن الدولة الأيوبية خاصة في فترة السلطان صلاح الدين الأيوبي.

المبحث الثاني: واقعه السياسي

تشكل الظروف التي يعيش فيها الإنسان جانبا مهما من جوانب تكوينية حيث أن تلك الظروف هي التي تبني شخصيته لأنه يتأثر بها في حياته وفكره سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وقد عاصر عبد الرحيم العديد من الظروف التي تدخلت في بناء شخصيته وتوجهاته وفكره خاصة الأحداث السياسية التي شهدها العالم الإسلامي في تلك الفترة ومن أهم الأحداث التي عاصرها عبد الرحيم نذكر:

أولا: الحروب الصليبية:

وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى الديار المقدسة سنة 492هـ/1099م[1] وفي نفس السنة تمكن الفرنج من الإستلاء على بيت المقدس في نحو ألف مقاتل وقتلوا أزيد من سبعين ألف قتيل من المسلمين[2] وقد ساروا من أنطاكية وبدأو يقاتلون أربعين يوما وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى فهجم عليهم الفرنج في الحرم فقتلوا منهم مائة ألف قتيل وسبوا مثلهم كما أخذوا من الصخرة والأقصى سبعين قنديلا منها 20 ذهبا و50 فضة[3].

في هذه الأثناء وصل الأفضل وزير مصر إلى عسقلان في رمضان وبعث رسلا إلى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه فهجموا عليه وقتل الأغلبية من جيشه[4].

---

[1] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق ، ص03 ؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق،ج09 ، ص19.

[2] ابن كثير: البداية والنهاية ، مصدر سابق، ج16 ، ص166 ؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ، مصدر سابق،ج03 ص23؛ ابن ميسر: مصدر سابق ، ص66 ؛ أبي الشامة: مصدر سابق ، ج1 ، ص148؛ ابن ثغري بردي: مصدر سابق،ج5 . 168.

[3] سبط ابن الجوزي: مصدر سابق، ج19 ، ص497.

[4] المقريزي: اتعاظ الحنفا: مصدر نفسه، ج03 ، ص23.

كما سبق أشرنا بأن عسقلان هي المدينة التي احتمى بها الأهالي ومن بينهم عائلة عبد الرحيم الذي عاش فيها نحو 15 سنة وقد تمكن خلال هذه الفترة عماد الدين زنكي* من فتح مدينة الرها سنة 539هـ/1144م وأعادها إلى حكم السلام كما سبق وأشرنا[1] فأحيا بهذا الانتصار آمال المسلمين وكان سن عبد الرحيم أنداك حوالي 11 سنة وقد تفاعل مع انتصارات عماد الدين زنكي وبدأت تتحد له رؤيا الجهاد كرؤية موسعة كحركة فكرية وعسكرية شاملة لإعادة الأراضي إلى أهلها وفي الوقت الذي أخذت الجبهة الفرنجية الشامية تتصدع وتتحجم بفعل انتصارات عماد الدين رأى الفرنج أن يبحثوا عن جبهة أخرى فأخذوا يتطلعون إلى مصر وكي يتحقق لهم ذلك كان لزاما عليهم احتلال عسقلان بوابة مصر[2].

وقد تمكن الفرنج من الاستيلاء على مدينة عسقلان سنة 548هـ/1152م حسب ما تكر جل المصادر وكان سبب تسليم عسقلان للفرنج أن أهلها كانوا في ضائقة يترقبون كل يوم الأسطول والنجدة من مصر وإذا بمركب صغير أقبل من مصر فاستبشروا وإذا فيه رجل ومعه كتاب من مصر وعند طلوع الفجر فتح الوالي الأبواب ودخل الفرنج عسقلان[3].

---

* هو أبو الجود عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله الملقب بالملك المنصور صاحب الموصل فوض له السلطان محمود بن محمد مكلشاه السلجوقي ولاية بغداد قتل سنة 541هـ1146م من قبل خادمة في فراشه (ينظر: ابن خلكان: مصدر سابق، مج2 ، ص327).

[1] أبي شامة: مصدر سابق، ج1 ، ص180؛ جمال الدين محمد بن سالم، بن واصل (ت 697هـ): مفرج الكروب في أخبار بن أبوب، تح: جمال الدين شيال، القاهرة، 1953 ، ج1 ، ص29.

[2] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق ، ص40.

[3] ابن الأثير: الكامل في التاريخ: مصدر سابق، ج09 .ص391 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج16 .ص368 ؛ ابن ميسر: مصدر سابق، ص146، أبي شامة: مصدر نفسه، ج1، ص275.

وينفرد ابن واصل يذكر أن الفرنج استولوا على عسقلان سنة 547هـ/1152م وكان نور الدين زنكي* قد تأسف لأنه لم يستطع ردهم عنها بسبب توسط دمشق بينه وبينهم[1].

كما عاصر عبد الرحيم الحملة الصليبية الثالثة سنة 585هـ/1189م بعد الانتصارات التي حققها صلاح الدين في بيت المقدس بحيث لم يتبق للصليبيين من مملكة بيت المقدس سوى مدينة صور وعاصمة طرابلس بعد هزيمتهم في حطين فكان من الطبيعي أن تكون ردة فعلهم عنيفة والتي تمثلت في الحملة الصليبية الثالثة[2] وسنفصل في هذه الأحداث في الفصل الأخير.

* ولد سنة 511هـ/1117م وهو ابن محمود زنكي، كان عادلا حسن السيرة شجاها كان محبا للحق وكارها للظلم فأمن الناس في زمنه وعم العدل(ينظر: أبي شامة: مصدر سابق،ج1 ، ص149؛ ابن العماد: مصدر سابق،ج06 ص378.

[1] بن واصل: مصدر سابق، ج1 ، ص126.

[2] عبد الفتاح، عاشور: الحركة الصليبية: مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 2010 ، ص ص113-114.

ثانيا: التفكك والصراع داخل الخلافة الفاطمية

شهد عبد الرحيم أوضاع سياسية دامية وصعبة في القاهرة زمن الخلافة الفاطمية تخللتها من المؤتمرات والصراعات أبرزها:

التنافس بين الوزراء وكبار الأمراء بمصر أواخر العهد الفاطمي وكان هذا التنافس والصراع آثار سيئة على الحياة السياسية[1] ففي سنة 544هـ/1149 وصل علي بن السلار* من ثغر الإسكندرية طالبا للوزارة ودخل القاهرة واخرج منها ابن مصال وقتله في نفس السنة[2] كما قتل هو الأخير سنة 548هـ/1152م[3] وتذكر المصادر بأنه كان عنيد ظالم، صعب المراس قتله نصر بن عباس علي فراشة بالقاهرة[4].

إضافة إلى الصراع الذي كان بين شاور وطلائع بن رزيك وقد استطاع شاور التخلص من طلائع بن رزيك عام 556هـ/1162م وتولى الوزارة للخليفة العاضد كما أن هذا الأخير خرج عليه ضرغام 558هـ/1164م مما أدى بشاور إلى الهرب إلى دمشق طلبا للنجدة[5].

وللإشارة فإن هذه المؤامرات قد شارك فيها بعض أفراد العائلة الفاطمية مثل المؤامرة التي شاركت فيها ست القصور عمة الخليفة

---

[1] حامد زيان غانم زيان: الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة،القاهرة، 1983 .ص47.

* هو أبو الحسن علي بن السلار المنعوت بالملك العادل سيف الدين وزير الظافر قتل سنة 548هـ(ينظر: ابن خلكان: مصدر سابق:مج03 ، ص416).

[2] الدواداري: مصدر سابق،ج6 ، ص553.

[3] ابن مسير: مصدر سابق ، ص146؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق،ج9 ، ص389 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية مصدر سابق، ج16 ، ص369 ؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام ، مصدر سابق ،ج37 ، ص42.

[4] ابن عماد: مصدر سابق،ج6 ، ص246.

[5] زيان: مرجع نفسه ، ص47.

العاضد الصغرى والتي راح مصرعها الوزير طلائع بن زريك هذا الأخير كثرت مضايقته لأهل القصر فرتبت له مؤامرة مع السودان[1].

وإن دلت هذه المؤامرة على شيء فتدل على صراع قوي بين القصر الفاطمي ومساندية من الجيش خاصة السودان وبين الوزير ومن في صفه خاصة الأرمن من أجل السيطرة على السياسة المصرية التي كانت قد بدأت تفلت من أيدي الفاطميين بصورة نهائية[2].

[1] المقريزي: اتعاظ الحنفا ، مصدر سابق ،ج3 ، ص24-247؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، مصدر سابق،ج9 ص449.

[2] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي ، مرجع سابق ، ص73.

ثالثا: التفكك والصراع داخل الخلافة العباسية

لقد أصبح السلاجقة هم حماة الخلافة العباسية السنية منذ دخلوا بغداد لنجدة الخليفة القائم بأمر الله (422هـ-467هـ/1031م-1075م) من أبي الحارث البساسيري القائد البويهي الذي حاول إسقاط الخلافة العباسية السنية وإقامة الدعوة على منابر بغداد للخلافة في الفاطمية الشيعية ، ومنذ ذلك الحين توالى على سلطنة السلاجقة ثلاثة من السلاطين الأقوياء طغرلبك(429هـ-455هـ/1037م-1063م) والسلطان ألب أرسلان(455هـ-465هـ/1063م-1072م) والسلطان ملكشاه(465هـ-485هـ/1072م-1092م)[1].

وقد صارت المنطقة بين خرسان وبلاد الشام وحدة سياسية واحدة تتبع الخليفة العباسي اسميا لكنها تدين بالخضوع الفعلي لسلطة السلاجقة ومنذ وقت مبكر اتجه هؤلاء نحو الشمال والغرب على حساب الأرمن والبيزنطيين والفاطميين[2].

غير أنه بوفاة السلطان ملكشاه في سنة 485هـ/1092 تفككت دولة السلاجقة بسبب الصراع حول السلطة [3] ومنذ سنة 513هـ/1119 نشبت حروب شديدة بين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وبين عمه السلطان سنجر بن ملكشاه وكان النصر فيها لسنجر ثم وقع الصلح بينهما، في هذه الأثناء وفي ظل الصراع حول السلطة سار الفرنج إلى حلب وسيطروا عليها[4].

---

[1] زيان: مرجع سابق ، ص09.

[2] قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1990 ،ص79.

[3] زيان: مرجع نفسه ، ص09.

[4] ابن كثير :البداية والنهاية، مصدر سابق،ج9 ، ص191؛ أبو يعلي حمزة، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908 ، ص202.

كما تجدر الإشارة بأن الغُز* أيضا خرجوا على السلطان سنجر وملكوا البلاد وأسروا السلطان سنجر وتذكر المصادر بأنه ذاق الذل والهوان في أسره وبقي معهم صورة بلا معنى[1] من سنة 548هـ/1152م إلى سنة 551هـ/1155م حين استطاع الهرب منهم[2] .

هذا من ناحية التفكك والانشقاق أما من ناحية التعاون بين المسلمين فتشكل سنة 539هـ1142م بداية اليقظة الإسلامية والتعاون العسكري بين أتابكية دمشق والخلافة الفاطمية بمصر خاصة بعدما استعاد عماد الدين زنكي أتابك الموصل وإمارة الرها إحدى الإمارات الصليبية الأربعة التي أسسها الصليبيون في بلاد الشام ويعرف بعض المؤرخين هذه المرحلة بأنها مرحلة الصحوة والإفاقة الإسلامية لتصدي لجحافل الصليبين متناسية الصراع والخلاف بينها[3].

فبعدما تولى ظهر الدين طغتكين* أمور البلاد الذي يعتبر من الشخصيات العربية الإسلامية التي قادت حركة الجهاد المقدس وكان مملوكا لتاج الدولة تتش بن آلب أرسلان وقد بادر الأفضل شاهنشاه الفاطمي بالاتصال به[4].

وقد استجاب له أتابك معربا عن سروره لمساندة الأفضل لتوحيد جهودهما لمواجهة الصليبين ولكن بوفاة طغتكين تجمد التعاون العسكري

---

* الغُز: عم أقوام من الترك يدينون بالإسلام في الجملة(ينظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج37 ،ص41.

[1] الذهبي: مصدر نفسه ؛ سبط ابن الجوزي : مصدر سابق،ج20 ، ص496.

[2] الذهبي: مصدر نفسه،ج38 ، ص06.

[3] سحر السيد عبد العزيز سالم: بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية،1997، ج1 . ص121.

* هو أبو منصور ظهير الدين أتابك صاحب الشام ومملوك تاج الدين تتش زوجه أم ابنه دقاق ونص عليه في أتابكية دقاق وكان شجاعا شهما عادلا توفي 522هـ(ينظر: سبط ابن الجوزي: مصدر نفسه:ج20، ص213).

[4] سحر السيد عبد العزيز سالم: مرجع نفسه، ص ص ص ص110-131-132-137.

بين دمشق والقاهرة[1] وتولى بعده ابنه تاج الملوك بوري بن طغتكين مدينة دمشق أكبر أولاد بوصية من والده[2] وفشلت محاولة التنسيق العسكري بين مصر وحلب التي ملكها أتابك عماد الدين زكي سنة 522هـ/1128م[3].

وقد مهد امتلاك نور الدين محمود دمشق عودة التنسيق والتعاون العسكري بين دمشق والقاهرة وبدا ذلك جليا سنة 558هـ/1163م عندما لاذ شارو أحد المتنافسين على كرسي الوزارة في مصر فارا من خصمه ضرغام[4] وسنفصل أكثر في هذا الاتصال والتعاون في الفصل الثالث.

[1] سحرالسيد عبد العزيز سالم: مرجع سابق ، ص137.

[2] ابن كثير: البداية والنهاية ، مصدر سابق، ج16 ، ص278 ؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، مصدر سابق،ج9 ،ص248.

[3] ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر نفسه،ج16 ، ص ص247،246.

[4] سحرالسيد عبد العزيز سالم : مرجع نفسه ، ص140.

الفصل الثاني

القاضي الفاضل عالما وأديبا

الفصل

برز ا
المؤرخون
منزلة
الدولة
حيث صار
صلاح
ومستشاره
ساهم
الفاضل
الساحة
ذلك
كل من
والشام،
له مدرسة

في
الأيوبية
وزير
الدين
الأول،كما
القاضي
في إثراء
الفكرية في
العصر في
مصر
حيث بنى
في مصر

المبحث الأول: إسهاماته العلمية

أولا: عنايته بالعلم والعلماء

ثانيا: تأسيس المدرسة الفاضلية

ثالثا: تأسيس مكتبة المدرسة الفاضلية

ثالثا: دار الحديث الفاضلية

المبحث الثاني: مصنفاته الأدبية

أولا: رسائله

ثانيا: شعره

عرفت باسمه وألحق بها مكتبة ضخمة ، وبنى دار للحديث بدمشق ، كما عرف عنه حبه للعلم والعلماء وإكرامهم ومساعدتهم ، كما تميز القاضي الفاضل بأسلوب نثري مختلف عن

باقي الأساليب النثرية الأخرى، أعجب هذا الأسلوب الأدباء والكتاب فحذوا حذوه، إضافة إلى نبوغه في الشعر.

ويورد لنا ابن خلكان إشارة بأن القاضي الفاضل كتب أيضا في مجال التاريخ وتدوين الأحداث يقول:"ورأيت في تاريخ القاضي الفاضل الذي رتبه على الأيام، وهو بخطه ويذكر فيه ما تجدد كل يوم..." وهذا يدل أن القاضي الفاضل كان مؤرخا لكن مع الأسف أن هذا المؤلف لم يصل إلينا وكل ما وصل إلينا رسائله وديوان شعره[1].

المبحث الأول: إسهاماته العلمية

أولا: عنايته بالعلم والعلماء

كان القاضي الفاضل شديد الاهتمام بالعلماء، والطلبة وكان مجلسه ملتقى العلماء والفقهاء والخطباء والأدباء والشعراء، حافلا بالبحث والتحقيق والمناظرات في مختلف أنواع العلوم، وكان شديد الميل إلى تلك النخب العلمية التي كانت تقصده ملتمسة منه العون حتى قيل أن المساعدات المالية بلغت قيمتها في عصر صلاح الدين 300ألف دينار شهريا خصصت على شكل رواتب شهرية وإقطاعات[2].

ويذكر لنا عبد اللطيف البغدادي اهتمام القاضي الفاضل به وإكرامه له حينما حضر إليه أثناء حصار عكا قال:"دخلنا عليه، فرأيت شخصا ضئيلا كله رأس وقلب ، فتحدثنا عن مسائل كثيرة ومع هذا لا يقطع الكتابة والإملاء وقال لي: نرجع إلى دمشق وتجري عليك الجريات ، فقلت: أريد مصر ، فقال: السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكا وقتل المسلمين بها، فقلت لابد لي بمصر، فكتب لي ورقة صغيرة إلى وكيله بها، فلما دخلت القاهرة جاءني وكيله وهو ابن سناء الملك فأنزلني دارا وجاءني بدنانير وغلة، ثم مضى إلى أرباب الدولة وقال: هذا ضيف القاضي الفاضل ، فدرت الهدايا والصِلات من كل جانب ، وكان كل

[1] ابن خلكان: مصدر سابق، مج1 ، ص258.

[2] القاضي الفاضل: مصدر سابق ، ص24.

عشرة أيام أو نحوها تصل تذكرة القاضي الفاضل إلى ديوان مصر بمهمات الدولة وفيها فصل يؤكد الوصية في حقي[1]."

وتظهر لنا مقولة البغدادي شدة اهتمام القاضي الفاضل بالعلماء وإكرامهم وحرصه عليهم.

كما يذكر العماد الأصفهاني أنه لما انتهى من كتابة الفتح القسي عرضه على القاضي الفاضل فقال له:"سمه الفتح القسي في الفتح القدسي" فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته، وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة في البيان عن صياغته[2].

ويضيف أيضا العماد الأصفهاني بأن القاضي الفاضل أمره بتعريب كتاب "كيمياء السعادة" تصنيف أبي حامد الغزالي فقام بتعريبه سنة 576هـ/1180م وصنفه في مجلدين ويقول بأنه بتعريفه علم ما فيه بسعادتين"[3].

ولما أدرك العلماء مدى اهتمام القاضي الفاضل بالعلم ، أخذوا يصنفون الكتب باسمه ويهدونها إليه اعترافا بفضله عليهم وتشجيعه لهم مثل الأمير والشاعر شمس الدين الخلافة (ت 622هـ) أهدى إليه كتاب الموسوم بالآداب النافعة بالألفاظ المختارة الجامعة، كما أهدى إليه أحد فقهاء العصر الأيوبي محمد بن مكي الحموي(ت680هـ) أرجوزة الفرائض والمسماة روضة المرتاض ونزهة الألقراض ، ومن جملة المؤلفات التي وجهها القاضي الفاضل كتاب

[1] عبد اللطيف البغدادي: كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر، الهيئة المصرية العامة، مصر،1998 ، ص ص 41 – 42.

[2] أبي عبد الله محمد عماد الدين الأصفهاني(ت597هـ): الفتح القسي في الفتح القدسي، دار المنار، [د.م] [د.ت]،ص 41.

[3] أبي عبد الله محمد عماد الدين الأصفهاني(ت597هـ): سنا البرق الشامي، تح: ففتحية النبرواي، مكتبة الخانجى مصر ،1979، ج1، ص 183؛ أبي شامة: مصدر سابق، ج03 ، ص96.

قوانين الدواوين لأسعد بن مماتي(ت606هـ)[1] رئيس ديوان الجيش في عهد صلاح الدين الأيوبي وتلميذ القاضي الفاضل[2].

تظهر النصوص التي بين أيدينا شدة اهتمام القاضي الفاضل بالعلماء ، وهذا ما تبينه اعترافات مختلف العلماء والرحالة والكتاب عن إكرام القاضي الفاضل لهم اهتمامه بهم أمثال العماد الأصفهاني الذي اعترف باهتمام القاضي الفاضل بمؤلفاته ، كما تظهر لنا اعترافات عبد اللطيف البغدادي اهتمام القاضي الفاضل به وإكرامه عند زيارته مدينة القاهرة ...إلخ.

ثانيا: تأسيس المدرسة الفاضلة

كان بناء المدارس منتشرا في الإسلام انتشارا هائلا، فقد كانت مدن سورية والعراق ومصر مليئة بالمدارس، وقد ألحق جميعها بمكتبات فنور الدين زكي بني مدرسة في دمشق

[1] مروان بن شوش: "مساهمات القاضي الفاضل في الحياة العلمية بمصر وبلاد الشام(529هـ- 596هـ/ 1135م-1200م)"، مجلة الدراسات التاريخية، ع19 ، 2015، ص ص 149-150.

[2] إبن خلكان: مصدر سابق، مج1، ص211.

وألحق بها مكتبة وكذلك فعل صلاح الدين الأيوبي وأفراد أسرته، والشيء نفسه قام به عدد كبير من أمراء المسلمين وكبار رجال الدولة من بينهم القاضي الفاضل وزير صلاح الدين[1].

أسس القاضي الفاضل مدرسة في القاهرة وعرفت باسمه المدرسة الفاضلية[2]، بدرب ملوخية وابتدأ التدريس بها مستهل محرم لسنة 580هـ 1184م[3].

وقد كانت هذه المدرسة أول مدرسة بنيت بالقاهرة لطلبة الشافعية والمالكية أي أنها أوقفت على مذهبين(الشافعي- المالكي)[4]، وقد بناها القاضي الفاضل بجوار داره وجعل فيها قاعة للإقراء وكانت هذه المدرسة من أعظم المدارس بالقاهرة وأجلها[5].

أما بالنسبة للأساتذة الذين تصدروا التدريس في المدرسة الفاضلية فقد كان جلهم من أبرز الأساتذة والشيوخ في ذلك العصر وقد حرص القاضي الفاضل على إكرامهم وتوفير الجو المناسب لهم ا للاستفادة من علمهم، وابرز هؤلاء الأساتذة نذكر:

1) الشاطبي، أبو القاسم بن فيرة القاسم الرعيني الأندلسي (ت590هـ) تفنن في قراءة القرآن والقراءات ، استوطن مصر ثم نقله القاضي الفاضل إلى مدرسته بالقاهرة وأفرد له حجره لطيفة مرخمة كما أفرد لأهله دار أخرى خارج المدرسة وبقي كذلك إلى وفاته[6].

---

[1] محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، نشأتها وتطورها ومصائرها، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1978 ، ص144.

[2] سبط ابن الجوزي: مصدر سابق، ج21 ، ص85 ؛ تقي الدين أبي العباس،المقريزي(ت845هـ): المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، شركة الأمل،الاسكندرية 2001، ج2، ص409.

[3] إبن خلكان: مصدر سابق، مج3 ، ص162؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج16 ص 699

[4] ابن العماد: مصدر سابق، ج6، ص533؛ أبي شامة: مصدر سابق، ج4، ص 279.

[5] أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف ، مصر ،1962، ج2، ص ص 52-53.

[6] جمال الدين أبي الحسن علي ابن يوسف، القفطي(ت 624هـ): إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي- القاهرة، مؤسسة الفكر الثقافية- بيروت، 1986، ج4، ص160.

2) سديد الدين عثمان بن عبد الكريم بن أحمد التزمنتي (ت674هـ) تفقه بالقاهرة وصار إماما بارعا عارفا بالمذهب، تصدر التدريس بالمدرسة الفاضلية .

3) عز الدين النشائي أبو حفص عمر بن أحمد بن مهيدي (ت 691هـ) زاهد ومتصوف درس أيضا بالفاضلية[1].

4) أبو الجود غياث بن فارس اللخمي المصري (ت605هـ) تصدر للإقراء بالمدرسة الفاضلية[2].

5) زيادة ابن عمران المقرئ المصري (ت629هـ) المالكي تصدر الإقراء بمصر ثم المدرسة الفاضلية.

6) النظام محمد بن مسلم المقرئ (ت646هـ) تصدر للإقراء بالفاضلية.

7) الفاضلي إبراهيم بن داود ظافر بن ربيعة (ت692هـ) شيخ القراء كان والده بخدمة القاضي الفاضل ولي مشيخة الحديث بالفاضلية[3].

8) أبو القاسم عبد الرحمن ابن الشيخ أبي الخير سلامة القضاعي (ت603هـ) ولي القضاء بثغر الإسكندرية مدة ثم درس بالفاضلية[4].

9) أبو البركات محمد بن أبي سلامة بن يوسف القضاعي(ت620هـ) المالكي تصدر للتدريس بالمدرسة الفاضلية[5].

كما تجدر الإشارة بأن القاضي الفاضل إضافة إلى هذه المدرسة، تزعم مدرسة البديع في الجانب الأدبي وجاءت مدرسته بخاصيتين ليست في الواقع من ابتكارها بل من ابتكار

---

[1] جلال الدين عبد الرحمن، السيوطي(ت911هـ): حسن المحاظرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، 1967، ج1، ص416.

[2] شمس الدين ابن أحمد ابن عثمان، الذهبي(ت748هـ): طبقات القراء ، تح: أحمد خان، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية[د.م]، 1997، ج2، ص ص 911-912.

[3] الذهبي: طبقات القراء، مصدر نفسه ،ج3 ، ص ص 1107- 1115 وما يليها.

[4] زكي الدين أبو محمد العظيم عبد القوي، المنذري(ت656هـ): التكملة لوفيات النقلة، ط2،تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984،ج2، ص98.

[5] المنذري: مصدرسابق/ج3، ص106.

المدارس الأدبية التي سبقتها غير أن فضل المدرسة الفاضلية هي الوصول بهاتين الخاصيتين إلى أقصى أشواطهما وهما التوجيه والاقتباس(التضمين) فالتوجيه هو استخدام المصطلحات العلمية على اختلافهما في الأدب والعلوم التي استمد التعبير الأدبي شيئا من مصلحاتهما على سبيل التوجيه كثيرة منها المنطق والفلسفة والفقه والنحو والصرف والحديث والخط والتاريخ...الخ، أما بالنسبة للتضمين فهو تضمين آيات من القرآن وبعض الأحاديث في الشعر وقد أكثر الشعراء في ذلك العصر من التضمين في شعرهم[1].

ثالثا: تأسيس مكتبة المدرسة الفاضلية

[1] عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، دار الفكر العربي، [د.م]، 1997، ص ص ص 280-281-282.

تميزت المدرسة الفاضلية بخاصتين أولهما شخصية القاضي الفاضل وهي شخصية رجل تفنن بالعلم وعرف بلائه في الأدب والسياسة ، والميزة الثانية هي المكتبة التي ألحقها القاضي الفاضل بهذه المدرسة[1].

وقد أودع القاضي الفاضل في هذه المكتبة حوالي 100 ألف كتاب وهذا لم يفعله أحد من الوزراء ولا العلماء ولا الكتاب[2] ، ويقال أنه كان بها مصحف قرآن كبير جدا مكتوب بالخط الأول الذي عرف بالخط الكوفي يسمى مصحف عثمان[3] وقد اشتراه بمبلغ ألف دينار[4].

وقد كان القاضي الفاضل شغوفا بجمع الكتب وشرائها وتذكر المصادر أنه بعد موت العاضد انقرضت الدولة الفاطمية واستولى صلاح الدين على ممتلكاتهم فاشترى القاضي الفاضل جل كتب هذه الخزانة[5] وكانت خزانة الدولة الفاطمية من أعظم الخزائن بل كانت من عجائب الدنيا ويقال أنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار بالقاهرة في القصر، حيث كان بها حوالي ألف ومائتان وعشرون نسخة بتاريخ الطبري ، وقيل أنها حوت على ألفي ألف وستمائة ألف كتاب[6].

---

[1] عبد اللطيف حمزة: مصدر سابق، ص ص 162-163.

[2] المقريزي: الخطط المقريزية، مصدر سابق،ج2 ، ص409؛ ابن كثير: البداية والنهاية،مصدر سابق،ج16، ص 699.

[3] أحمد فكري : مرجع سابق، ص53.

[4] مروان بن شوش: مرجع سابق ، ص149.

[5] القلقشندي: مصدر سابق،ج1، ص467.

[6] أبو شامة : مصدر سابق،ج2، ص137؛ ابن واصل : مصدر سابق، ج1، ص203.

وقد حصل القاضي الفاضل على كتب الدولة الفاطمية وذلك أنه دخل إليها وكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة كانت هناك فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى الكتب التي ألقاها في البركة ثم جمعها[1].

وبهذه الطريقة حصل القاضي الفاضل على مائة ألف مجلد من هذه المكتبة[2] ولما أنشأ مدرسته بالقاهرة وقف هذه الكتب بها وبقيت إلى أن استولت عليها الأيدي فلم يبق منها إلا القليل[3]، وذلك بسبب الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها مصر سنة 694هـ/1294م مما جعل الطلبة الذين كانوا بها يبيعون كل مجلد برغيف خبز حتى تلاشي ذلك المخزون العلمي والثقافي وهذا دليل على تراجع نسبة الخدمات المقدمة للطلبة حتى دفعتهم الحاجة إلى بيع الكتب[4].

كما حصل القاضي الفاضل على الكتب الموجودة بخزانة الكتب بآمد والتي فتحها السلطان صلاح الدين يوم الأربعاء 579هـ/1182م ووجد فيها خزانة كتب حوت ألف ألف وأربعون ألف، فوهبها السلطان للقاضي الفاضل فحملها على 70 ناقة[5].

[1] أبي شامة: مصدر سابق، ج2، ص137؛ محمد ماهر حمادة: مرجع سابق، ص 121.

[2] محمد ماهر حمادة: مرجع نفسه، ص122.

[3] القلقشندي: مصدر سابق،ج1، ص467.

[4] مروان ابن شوش: مرجع سابق، ص149.

[5] أبي شامة: مصدر نفسه، ج3، ص ص 145-146.

رابعا: دار الحديث الفاضلية:

حظي علم الحديث النبوي بعناية كبيرة من علماء الإسلام منذ القرون الهجرية الأولى، وهذا لكونه مصدرا من مصادر التشريع الإسلامي، وقد كان في القرن السادس هجري محل اهتمام العلماء ورجال السياسة والسلاطين، وقد اهتم القاضي الفاضل بالحديث النبوي[1] وذلك بتأسيس دار للحديث عرفت باسمه بالكلاسة(دمشق) ويذكر النعيمي بأنها بجوار تربة صلاح الدين الأيوبي[2] .

ويذكر ابن العماد بأنه لما حفرها وجد تحت الأرض أعمدة رخام قائمة على قواعد رخام وأثر العمارة متصل تحت الأرض ليس له نهاية وكأنه كان معبد ووجد فيه قبلة نحو الشمال[3].

ووقف القاضي الفاضل على هذه الدار مزرعة وأول من درس بهذه الدار الشيخ تقي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني (ت655هـ) كان شيخا صالحا مشتغلا بالحديث وأكثر كتبه ومجامعيه بخطه موقوفة بخزانة الفاضلية[4].

ثم تولاها بعده النجم أخو البدر مفضل (ت 657هـ) كان شيخ الفاضلية وكان له إجازة من الشيخ بدر الدين يحي[5].

وبعد وفاته تولاها الحافظ الذهبي (ت748هـ) وبعده تقي الدين أبو المعالي الصميدي المصري تخرج في علم الحديث تولى دار الحديث الفاضلية بعد وفاة الذهبي،

---

[1] مروان ابن شوش: مرجع سابق، ص184.

[2] عبد القادر ابن محمد، النعيمي (ت978هـ): الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، ج1.ص67؛ محمد كرد علي : خطط الشام، ط2، مكتبة النوري،دمشق،[د.ت]، ج6.ص73.

[3] ابن العماد: مصدر سابق، ج6، ص533؛ الصفدي: مصدر سابق، ج18 ، ص208.

[4] النعيمي: مصدر نفسه،ج1 ، ص ص 69- 70؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ط7، مكتبة المعارف، بيروت، 1988، ج13، ص194.

[5] ابن كثير : البداية والنهاية، مصدر نفسه،ج13، ص219؛ النعيمي: مصدر نفسه، ج1، ص70.

وبعده تولاها الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد المعروف بابن الموصلي(ت774هـ) ولي مشيخة الفاضلية[1].

وقد اهتم بهذه الدار القاضي الأشرف ابن القاضي الفاضل (ت643هـ) كان صدرا رئيسا محتشما، وزر للملك العادل فلما مات عرضت عليه الوزارة فلم يقبل وأقبل على طلب الحديث وسماعه والتفقه والتدريس بمدرسة والده والتي سبق وأشرت إليها، وكان كثير الإحسان إلى المحدثين ووقف عليهم وظيفة بالكلاسة شيخا وقارئا وعشرة محدثين وشرط أن يكونوا من الشافعية ووقف فيها خزانة عظيمة من الكتب[2].

تبين النصوص التي بين أيدينا شدة اهتمام القاضي الفاضل بالعلم والعلماء فقد شيد لهم مدرسة بالقاهرة ووقف فيها عددا هائلا من الكتب النفيسة كما شيد دار للحديث بدمشق وقد درس في كل من المدرسة ودار الحديث الفاضلية ألمع الشيوخ والعلماء في ذلك العصر.

[1] النعيمي: مصدر نفسه،ج1، ص ص 70-71.

[2] شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان، الذهبي(ت 748هـ): المعين في طبقات المحدثين، تح: محمد زينهم محمد عزب، دار الصحوة، حلوان، 1987.ص284؛ أبو الفداء إسماعيل ، ابن كثير(ت776هـ): طبقات الشافعية، تح: عبد الحفيظ منصور، دار المدار، بيروت،2004،ج1، ص778.

المبحث الثاني: مصنفاته الأدبية

أولا: رسائله:

1. خصائصها

يعد القاضي الفاضل من جملة الكتاب والعلماء الذين برعوا في فنون الكتابة والنثر، ويصفه النويري بأنه كاتب الشرق والغرب في زمانه ، رافع علم البيان[1]، وتذكر المصادر بأن مسودات رسائله لو جمعت لبلغت 100مجلد[2].

وقد رفعته الكتابة كما أشرت حتى وزر للسلطان صلاح الدين الأيوبي وعلت رتبته عنده[3] وذلك لتميزه بأسلوب مختلف عن غيره من الكتاب والأدباء في عصره ومن أهم الخصائص التي اتصف بها أسلوب القاضي الفاضل هي:

- كان يختم القاضي الفاضل رسائله وكتبه بالأدعية متصلة بقوله"إن شاء الله" وقد انتقده البعض على هذا ، مثل أبي شامة في كتابه الروضتين وقال بأن التعليق بالمشيئة غير لائق بالأدعية مثل قول الفاضل في أحد رسائله التي أرسلها للسلطان صلاح الدين "ويبارك لمولانا في المقام والسير، إن شاء الله" ودعم أبو شامة قوله بحديث للرسول صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، اللهم ارزقني إن شئت، ليعزم مسألته فإنه يفعل ما يشاء، لا مكره، له"[4].
- كما امتازت رسائل القاضي الفاضل بما يسمى" نثر القرآن" فقد كان يأتي ببعض الآيات القرآنية ويقوم بنثرها في رسائله ويدمجها إدماجا حسنا في كلامه فتبدوا كأنها

---

[1] النويري: مصدر سابق، ج8.ص3.

[2] ابن العماد: مصدر سابق، ج6، ص530؛ السيوطي:مصدر سابق، ج1، ص 564؛ أبي شامة: مصدر سابق، ج4، ص284؛ ابن خلكان: مصدر سابق، مج3، ص156.

[3] القلقشندي: مصدر سابق، ج1، ص41.

[4] أبو شامة: مصدر نفسه،ج3 ، ص ص 91- 92.

جزءا من هذه الرسائل ومن ذلك قوله في رسالة إخوانية: "ولقد فضح الأوائل ، واتعب الأواخر، ونبذ للناس الحصى ونظم الجواهر ، وتمسك بعصم الكلمات المؤمنات ، وتمسك البلغاء بعصمهم الكوافر....الخ".

وهذا فيه شيء من تجسيم المعنى إذ جعل لهذه الكلمات"مؤمنات وكافرات" معاصم يمسك بها البلغاء ونحو ذلك مما هو مشهور في أسلوب القاضي الفاضل[1].

وقد تفنن القاضي الفاضل في البديع والجناس والسجع، وقد بالغ في التنميق[2] واستحدث طريقة جديدة بناها على طريقة ابن العميد (ت433هـ) مازها بالإغراق في التورية والجناس حتى أصبحت الكتابة في عصره طلائا خادعا من زخرف اللفظ على هيكل بال من المعنى السقيم وقد وصفها النقاد الحدثين بالطريقة العقيمة[3].

وحتى لا نظلم أدب القاضي الفاضل يجب علينا ان ننظر إلى هذا الأدب بنفس العين التي نظر بها أهله له ونتذوقه بنفس الطريقة، فقد أسرف القاضي الفاضي في أسلوب الزينة وهي حاجته إرضاء الفن للفن وهنا نجد فرق بين ذوقه في عصره وبين أذواقنا في العصر الحالي[4].

2. أنواعها

تعددت وتنوعت رسائل القاضي الفاضل ما بين الرسائل السياسية والرسائل الوصفية والرسائل الإخوانية وهي كالأتي:

[1] عبد اللطيف حمزة: مرجع سابق، ص ص280-281.

[2] سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت[د.ت] ، ص135.

[3] الزيات: مرجع سابق، ص ص 248-249.

[4] عبد اللطيف حمزة: مرجع نفسه، ص ص284-285.

أ- **الرسائل السياسية:** ويلاحظ أن أغلب الرسائل الواردة بخط الفاضل تنتمي إلى الفترة الزمنية الممتدة ما بين (568هـ-589هـ/1172م-1193م) وهي الفترة التي شهد فيها العالم الإسلامي تغيرات سياسة كبيرة أهمها ظهور صلاح الدين وقضاءه على الخلافة الفاطمية وتوسيع أركان دولته وتوجهه نحو الجهاد ضد الفرنج[1].

وخلال هذه الفترة كان القاضي الفاضل يكتب معظم الرسائل التي كان يرسلها السلطان صلاح الدين إلى القادة الإسلاميين مثل الرسائل التي كتبها إلى نور الدين زنكي والتي عكست هذه الرسائل ولاء صلاح الدين إليه وطاعته له منها رسالة بعثها إليه سنة 568هـ/1172م جاء فيها:"سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل أعز الله سلطانه ومد أبدا إحسانه ومكن بالنصر أمكانه وشيد بالتأييد مكانه ، علم الملوك بما يؤثر المولى أن يقصد الكفار بما يخص أجنحتهم ويقلل أسلحتهم..." وهي الرسالة التي بعثها بعد نزوله على الكرك والشوبك[2].

كما كتب رسالة أخرى إلى نور الدين سنة 569هـ/1173م يتضمن فيه قتل جماعة من المبتدعة:"أدام الله تعلى سلطان الملك العادل، وحرس من النعم ما خوله، وأنهضه بالأمر الذي حمله...." وهاتين الرسالتين تظهر بوضوح ولاء السلطان صلاح الدين إلى نور الدين زنكي[3].

- وكتب القاضي الفاضل على لسان السلطان صلاح الدين إلى الخليفة العباسي ببغداد لكون الخليفة هو الممثل الشرعي لوحدة المسلمين لذلك أكد القاضي الفاضل في الرسائل التي كان يبعثها إلى الخليفة العباسي بأن بغداد هي دار السلام وأكد بان

---

[1] القاضي الفاضل: مصدر سابق، ص13.

[2] العماد الأصفهاني: سنا البرق الشامي، مصدر سابق ج1، ص ص 65-66؛ القاضي الفاضل : مصدر نفسه ، ص45.

[3] القاضي الفاضل: مصدر نفسه، ص34؛ العماد الأصفهاني: سنا البرق الشامي،مصدر نفسه، ج1 ، ص30.

صلاح الدين هو عبد من عبيد الخليفة وكانت هذه الرسائل تؤكد على ولاء صلاح الدين للخليفة العباسي[1].

- وجل الرسائل التي كتبها القاضي الفاضل إلى الخليفة نذكر الرسالة التي كتبها له سنة 578هـ/ 1182 م على لسان صلاح الدين:"وكان الفرنج قد ركبو من الأمر نكرا، وافتضوا من البحر بكرا، وعمروا مراكب سحنوها بالمقاتلة..."[2].
- كما كان يكتب إلى الخليفة يبشره بالفتوحات التي كان يقوم بها صلاح الدين مثل الكتاب الذي كتبه يبشره بفتح آمد 579هـ/1182م[3] ، وكتب يبشره بمعركة حطين وكسرة والفرنج 583هـ/1187م[4].

وكتب القاضي الفاضل رسالة إلى بغداد على لسان صلاح الدين يبشره بفتح مدينة عكا ويصف كسرة الفرنج[5].

- ومن المفيد أن نشير إلا أن القاضي الفاضل قد أشار في رسائله إلى خطورة هجرة الصليبين واستيطانهم ، كما أشار إلى ضرورة الجهاد من أجل تحرير بيت المقدس فقد أكد في رسائله ضرورة تحرير بيت المقدس ، وبذلك انصبت معظم رسائله على خدمة المجهود الحربي كناطق إعلامي رسمي لجيش صلاح الدين[6].
- كما كتب القاضي الفاضل إلى بغداد سنة 586هـ1190م بعد نزول الفرنج على مدينة عكا:"ومن خبر الفرنج أنهم على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه..."[7]

---

[1] القاضي الفاضل: مصدر سابق، ص ص 13-14.

[2] سبط ابن الجوزي: مصدر سابق، ج21، ص 286.

[3] أبي شامة: مصدر سابق،ج3، ص149.

[4] القاضي الفاضل: مصدر نفسه، ص231.

[5] أبي شامة: مصدر نفسه، ج3 ،ص ص 312-313.

[6] القاضي الفاضل: مصدر نفسه، ص 15-16.

[7] أبي شامة: مصدر سابق،ج4، ص82.

وتوضح رسالة القاضي الفاضل تمركز الفرنج بعكا ووصول الإمدادات لهم عبر البحر.

- كتب أيضا إلى الديوان ببغداد رسالة سنة 587هـ/1191م بين فيها الصعوبات التي واجهها صلاح الدين في مواجهة الحملة الصليبية الثالثة ، وضرورة المساعدة من طرف الخليفة في رد العدوان الصليبي على عكا والذي قد استفحل أمره بعد الإمكانات التي وفرتها أوروبا لهذه الحملة وجاء في مستهل هذه الرسالة:"ما قطع الخادم الخدم، إلا لأنه قد أضجر وأسأم ، من المطالعة لخبر، هذا العدوان الذي قد استفحل أمره واستشرى شره..."[1]

ب- **الرسائل الوصفية:** وهي الرسائل التي وصف فيها القاضي الفاضل المعارك والحروب والقتلى وأدوات القتال ومواضع شتى ومختلفة ومن بين هذه الرسائل نذكر:

- الكتاب الذي كتبه على لسان صلاح الدين يصف فيه الأسطول الواصل إلى الإسكندرية من صقلية وانهزامه سنة 570هـ/1174م جاء فيه:"وهذه المكاتبة صادرة إلى الأمير بعد أن وصل الأسطول الصقلي على ظاهر ثغر الإسكندرية ... وكانت عدة المراكب الحمالة برسم الأزواد للرجال أرعين مركب وفيها من الراجل وغلمان الخيالة ، وصناع المراكب...."[2].

- كما أرسل السلطان رسالة بالإنشاء الفاضلي إلى بعض الأمراء يصف فيها كسرة الرملة سنة 573هـ/1177م جاء فيه:"من البلاء نعم الله سبحانه في كل ما تصرفنا

[1] ابن واصل: مصدر سابق: ج2 ، ص ص ص352-353-354؛ أبي شامة: مصدر نفسه .ص ص147-148؛ القاضي الفاضل: مصدرسابق، ص ص ص 254-255-256.(ينظر: الملحق رقم1).

[2] القاضي الفاضل: مصدرنفسه، ص ص ص 63-64-65.

عليه... والعساكر المنصورة سالمة بجمهورنا مقسومة... وقد كانت هذه العساكر جالست خلال ديار الكفار وقاتلت البلاد بالسيفين الحديد والنار..."[1].

– وهذا فيما يخص الرسائل التي تصف الحروب والمعارك كما كتب القاضي الفاضل رسائل يصف فيها ما لقبه في طريقه من الحج إلى مصر وهي الرسالة التي بعثها إلى الصفي بن القابض الذي كان يتولى الخزانة والديوان بدمشق جاء فيها فقال:"خرجا من مكة يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة، وفي هذه الأيام..... ووصلنا إلى جُدَّة يوم الأحد السابع والعشرين من ذي الحجة، وركبا البحر يوم الثلاثاء...."[2].

– كما كتب القاضي الفاضل كتابا إلى بغداد يصف فيه حصن بيت الأحزان وهو الحصن الذي فتحه صلاح الدين سنة 575هـ/1179م بالقرب من صفد يقول:"وقد عرض حائطه إلى أن زاد على عشرة أذرع وقطعت له عظام الحجارة ، كل فض منها من سبع أذرع إلى ما فوقها وما دونها، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر، لا يستقل الحجر في مكانه ، ولا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها...."[3]

– لم يكتف القاضي الفاضل بوصف المعارك والحصون والأسطول بل كتب رسائل تصف الكوارث الطبيعية وهو الكتاب الذي كتبه إلى محي الدين بن الزكي سنة 593هـ/1197م والذي وصف فيه البرق والرياح التي عصفت بمصر وجاء فيه:"ومما جرى من المعضلات بأس من الله طرق ونحن نيام ، وظن الناس انه اليوم الموعود، ولا يحسب المجلس أني أرسلت القلم محرفا، والقول مجزفا فالأمر أعظم ولكن الله سلم ، إن الله ألق بساعة كالساعة..... في تاسع عشر جمادى الآخرة[4] أتى عارض فيه ظلمات

[1] العماد الأصفهاني: سنا البرق الشامي،مصدر سابق ،ج1 ، ص ص ص 131–132–133.

[2] أبي شامة : مصدر سابق، ج3، ص ص ص 46–47–48، (ينظر: الملحق رقم2).

[3] أبي شامة: مصدر نفسه، ج3، ص42.

[4] الذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج42، ص16.

متكاثفة وبروق خاطفة ، ورياح عاصفة ، قوي الهواء بها ، واشتد هبوبها وارتفعت لها صعقات....."[1].

ج- الرسائل الإخوانية

وهي الرسائل التي يتبادلها الإخوان فيما بينهم[2]، وكانت هذه الرسائل مما يتفنن كبار الكتاب، وكان الأدباء يبثون فيها عواطفهم الشخصية في لغة مصقولة منتقاة[3].

ويذكر القلقشندي بان الكاتب إذا كان ماهرا ، أغرب معانيها ، ولطف مبانيها ، وتسهل له فيها مالا يكاد أن يستهل في الكتب ، وقد صنفها إلى سبعة عشر نوعا وهي الرسائل الخاصة بالتهاني بالوزارة أو الإمارة أو بولاية القضاء الخ، والخاصة بالتعزي بالابن أو البنت أو الأب أو الأم...الخ، والرسائل الخاصة بالتهادي والملاطفة، والشوق ...الخ[4].

ومن الرسائل التي كتبها القاضي الفاضل من باب التهنئة ، الرسالة التي كتبها إلى السلطان صلاح الأيوبي 577هـ/1181م حين عودته إلى الإسكندرية وسماعه "موطأ مالك" من الشيخ الإمام أبي طاهر بن عوف فكتب له يهنئه على رحلته العلمية قال:"أدام الله دولة المولى الملك الناصر، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محي دولة أمير المؤمنين ، وأسعده برحلته العلمية وأثابه عليها..."[5].

كما كتب القاضي الفاضل سنة 573هـ/1177م رسالة إلى السلطان صلاح الدين يهنئه بمولود جديد له:"نصر الله الإسلام بمقامه وأهلك أعداء الحق بانتقامه ويهنئ المولى بنعمة الله عنده وعند الإسلام وأهله من زيادة في ولده

---

[1] ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج16 .674.

[2] أحمد أمين مصطفى: فنون النثر في العصر العباسي، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، 1996، ص40.

[3] أحمد احمد بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر، القاهرة، 1996، ص577.

[4] القلقشندي: مصدر سابق، ج9، ص5 وما يليها.

[5] أبي شامة: مصدر سابق،ج3 ، ص89.

وكثرة في عدده وهو الأمير أبو سليمان داود أنشأه الله نشوء صالحي خلقه وجعله كما جعل أباه أنصار حقه...."[1].

وأرسل القاضي الفاضل رسالة أخرى في نفس السنة إلى السلطان صلاح الدين يهنئه بعيد النحر:"أدام الله دولة مولانا الملك الناصر وخصه بتشييد بناء السلطان ولا أخلى منه عيون الأولياء فأما القلوب فإنه لها سكن وأنها له أوطان وألهمه أن يخلف محمدا صل الله عليه وسلم بأحسن الخلافة في أمته"[2]

أما فيما يخص الرسائل التي كتبها القاضي الفاضل في باب التعازي نذكر الرسالة التي كتبها على لسان السلطان صلاح الدين إلى الملك الصالح إسماعيل ابن نور الدين زنكي يعزيه بوفاة والده سنة 569هـ/1173م جاء فيه:"أنزل الله الصبر وضاعف التأييد والنصر، وأطلع الزمن النضر ، بالجناب العالي الملكي الصالحي وثبته في محل الامتحان والاختبار، وبصره بمحبة التذكير والاستبصار ...الخ"[3].

كما كتب رسالة إلى الملك العادل أخو السلطان صلاح الدين اثر وفاة الملك العزيز سنة 595هـ/1199م جاء فيه:"أدام الله أيام مولانا الملك العادل وفدت النفوس نفسه الكريمة وأحياه الله حياة طيبة... وأعظم أجره في ولده الملك العزيز رحم الله ذلك الوجه الكريم ونضره ، وإلى سبيل الجنة يسره....."[4].كما لا يفوتنا أن نشير إلى رسائل القاضي الفاضل التي كتبها إلى السلطان صلاح الدين مواسيا وناصحا إثر حصار عكا سنة 586هـ/ 1190م جاء في بعضها:"المملوك ينهي أن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته ، ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته.....، ولا شبهة أن مولانا –عز نصره– في إشغال شاغله، وأمور متشددة، وقضايا غير واحدة ، ولكنه قد

---

[1] العماد الأصفهاني: سنا البرق الشامي، مصدر سابق،ج1، ص141.

[2] نفسه.

[3] القاضي الفاضل: مصدر سابق، ص48.

[4] ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق،ج16، ص184؛ سبط ابن الجوزي: مصدر سابق، ج22.ص71.

ابتلى الناس[1] فصبروا، وأضجرتهم ألأيا فما ضجروا..... غير أن مولانا ذكر نصيبه من الأقدام فلا ينسى نصيبه من الحزم....."[2]

أما فيما يخص الرسائل التي كتبها القاضي الفاضل ليعبر عن اشتياقه إلى بعض إخوانه وأصحابه نذكر:"هذه تحية القلب المعذب ، وسريرة الصبر المذبذب وظلامه عزم السلو المكذب ، أصدرتها إلى المجلس وقد وقَدَ في الحشا نارها، الزفير أوارها، والدموع شرارها ، والشوق آثارها ، أسفا على أيام الاجتماع التي كانت مواسم السرور والأسرار ، ومباسم الثغور والأوطار، وتذكر لأوقات عذب مذاقها، وامتد بالأنس رواقها..... "[3]

كما ورد لنا النويري بعض رسائله التي كتبها إلى بعض أحبائه جاء فيها :"اصدر العبد الخدمة وعنده شوق يغور به وينجد ويستغيث من ناره بماء الدمع فيجيب وينجد ، ويتعلل بالنسيم فيفري ناره بالإحراق ، ويرفع النواظر إلى السلوان فيعيدها الوجد في قبضة الإطراق ، أسفا على زمن تضرم ولم يبقى إلا وجدا تضرم وقلبا في يد البين المشتت يتظلم"[4].

وتظهر الرسائل التي رجعت إليها وتصفحتها من الإنشاء الفاضلي عن قدرة إدارية عالية وكفاءة في الكتابة تفوق بها القاضي الفاضل الفاضل عن غيره من الكتاب وهي الكفاءة إلى أوصلته إلى صف الوزارة في زمن صلاح الدين الأيوبي.

ثانـيا: شـعره

[1] أبي شامة: مصدر سابق، ج4، ص ص 101- 102.

[2] نفسه.

[3] القلقشندي : مصدر سابق،ج1، ص ص 274-275.

[4] النويري : مصدر سابق، ج8 ، ص16.

لقد كان الفاضل مكثر من الشعر وقد خلف ديوان من الشعر، وتميز شعره بفصاحة الألفاظ وسهولة التركيب مع المتانة ، واضح المعاني ، وكان جل شعره في المدح والغزل والفخر[1]، كما نظم القاضي الفاضل في فنون أخرى كالوصف والخمر غير أنه لم يتوسع فيها كالمدح والغزل.

ومن شعره في الوصف مثلا قوله في الفرش والأرائك والمساندة.

سباط يرى التيجان تهوى للثمة فما هو إلا قبلة من مقبل

إذا نشرت من نقشه لك روضة بدا فوقها من كفها لك جدول

وأفضل أجزاء الجسوم رؤوسها وأرجلها في وطء بسطك أفضل[2]

وقال في وصف الخمر:

لها منن تصفو على الشرب أربع وواحد لولا سماحتها تكفي

سرور إلى قلب وبتر إلى يد ونور إلى عين وعطر إلى أنف

ولما رأينا ياسمين حبا بها مددنا يمين القطف قيل يد الرشف[3]

ومن بين الخصائص التي تميز بها عزل القاضي الفاضل توظيف وابتكار بعض الصور في شعره مثل صور الحية والعقرب التي لا يسام من ترديدها[4].

ومن أمثلة ذلك قوله:

لم اخف حية على الخد تسعى لا ولا عقربا عليه يدب

مت ضيفا في الرق رق غليلي مطلته بالورد والورد نهب

---

[1] عمر فروخ: الأدب العربي في المشرق، دار العلم، بيروت، [د.ت]، ص411.

[2] هادية راغب دجاني: "القاضي الفاضل عبد الرحيم"، رسالة قدمت إلى الدائرة العربية للحصول على درجة"أستاذ علوم"، الجامعة الأمريكية ببيروت، 1961.ص117.

[3] الصفدي: مصدر سابق، ج18، ص221.

[4] دجاني : القاضي الفاضل، مرجع نفسه ، ص118.

ومن الصور التي أولع فيها القاضي الفاضل في غزله أيضا قصة آدم وهبوطه من الجنة مثل قوله:

يا من سفكت دمائي في الدموع له والنفس في زفرات قيدت نفسي

عاهدتم وتناسيتم عهودكم فالله عاهد قدما أدما فنسي[1]

أما مدحه فكان بالصفات العامة الشائعة من كرم وعلم وحلم وشجاعة وتقوى وحسن تدبير وعقل ومن بين الأبيات التي نظمها في باب المدح .

قال يمدح السلطان صلاح الدين بعد معركة حطين:

تلك المكارم لا قعبان من لبن وذلك الفتح لا عمان واليمن[2]

وقال أيضا في مدحه لصلاح الدين ومواسيا له على حصار عكا:

نحن الذين إذا علو لم يبطروا يوم الهياج وان علو لم يضجروا[3]

وقال أيضا:

فإن كان ذنبي أن أحسن مطلبي إساة ففي سوء القضاء لى العذر[4]

كما نظم القاضي الفاضل أبياتا من الشعر ليعبر عن أشواقه وحنينه مثل الأبيات التي نظمها ليعبر عن شوقه إلى مصر والنيل عندما وصل إلى الفرات في خدمة السلطان صلاح الدين قال:

بالله قل لليل عنِّي:أتتتتني لم أشف من ماء الفرات غليلا

ونيل الفؤاد فإنه لي شاهد أن كان جفني بالدموع بخيلا

يا قلب كم خلفت ثم بثينة وأعيذ صبرك أن يكون جميلا[5]

وقال أيضا في تشوقه إلى بعض إخوانه وأصحابه:

---

[1] دجاني: القاضي الفاضل، مرجع سابق ، ص ص 118-119.

[2] أبي شامة: مصدر سابق،ج3 ، ص300.

[3] أبي شامة : مصدر نفسه،ج4، ص103.

[4] النويري: مصدر سابق،ج8.ص14.

[5] ابن خلكان: مصدر سابق، مج3، ص160؛ الصفدي: مصدر سابق، ج18، ص219.

فيا رب إن البين أضحت صروفه عليّ، ومالي من معين فكن معي

على قرب عذّ إلى وبعد أحبتي وأمواه أجفاني ونيران أضلعي

وقال أيضا:

لو زارني منكم خيال هاجر لهدته في ظلمائه أنوارها

والله ما نسيت نفسي حلاوتها فكيف أذكر أني اليوم أذكرها؟[1]

ويعتبر القاضي الفاضل هو أول من أظهر التورية في الشعر[2] وفي توريته قال:

فيا ليل إن توليفها يدا تجدني لها ذاكرا شاكرا

وإن قلت: نعرفه كافرا أقل: لا ولكن نعم، فاجرا

وقد استخدم كلمة كافرا على سبيل التورية في الحكم ضد الإيمان والكفر بمعنى الستر وفي كلمة كافر تورية، فالمعنى القريب مأخوذ من الفجور والانبعاث في المعاصي[3].

كما وصف القاضي الفاضل في شعره معاني مستمدة من ثقافته الأصلية وأكثر شيء تأثر به القاضي الفاضل هو القرآن الكريم ومن بعض تأثره بالقرآن نذكر:

إذا زلزلت بالعاديات منازل فلا هجنكم صبحا ولا رعنكم ضبحا

استمد من قوله تعالى في سورة العاديات[4].

كما اشتهر القاضي الفاضل باعتنائه بالجناس والطباق ومراعاة النظير فمن جناسه قوله:

من أين أنت ومن يدريك أين أنا الجد خلقي ، ومن أخلاقك العبث

ما جئت مبعوثة، بل جئت باعثة همي،ولا خاطر طرفي في الهم منبعث

[1] القلقشندي: مصدر سابق، ج1، ص274.

[2] محمد ابن أحمد، ابن إياس(ت930هـ): بدائع الزهور ووقائع الدهور، مطابع الشعر،[د.م]، 1960،ج1، ص60.

[3] دجاني: القاضي الفاضل ، مرجع سابق، ص127.

[4] دجاني: القاضي الفاضل، مرجع نفسه، ص122.

حيث حاول الفاضل أن يجانس جناس اشتياق بين مبعوثة وباعثة وكلمة العبث.

وقوله:

لم يطمع الليل مني أن ارق له ينسى جناياته الناسي على الناس

حيث جانس بين كلمتي ناسي ، والناس جناسا تاما[1].

وقبل أن العزيز هوى قنية شغلت عن مصالحه فأمره أبوه بتركها ، فشق ذلك عليه وضاق صدره ولم يجتمع بها فسيرت له مع بعض الخدم كرة عنبر فكسرها فوجد فيها زر ذهب فلم يعرف المعنى وعرف القاضي الفاضل المعنى فنظم بيتين[2].

وأرسلها إليه قال:

أهدت لك العنبر في وسطه زر من التبر خفي اللحام

فالزر في العنبر معناها زر هكذا متخفيا في الظلام[3]

وهذا يدل على قدرة القاضي الفاضل في فهم المعاني ونظمها في شكل شعر وهذا يسمى التلاعب بالألفاظ والمعاني.

وقد برع القاضي الفاضل أيضا فيما يعرف بالموشحات وقد كانت له موشحة هي:

من لي به بـدر كله قد جار قلبي كله

فهل ترى نتــعزز والعزى في الحب ذلة

****

رضيت فيه مصابي فما على على الناس مني

وراحتي في عز أبي فلو مضى ذلك عني

لاشتياق قلبي لما بي فهل علمتهم بأني

أمسيت أحمل مقله من المنام مقله

[1] مرجع سابق، ص129.

[2] ابن خلكان: مصدر سابق، مج3، ص161؛ الصفدي: مصدر سابق، ج18، ص211.

[3] نفسه.

لو زارها الطيف أعور نوم يكون محله[1]

****

مزجت منها كؤوسا تجلو الدجى شعاع

إذا تجلت شموسا وقام للهو داع

بالروض يجلي عرسا قد سورت لشجاع

أشجارها مثل كله فالروض مطرح بذلة[2]

له من النهر فروز فالنظر إلى صفى الله[3]

****

قد جدد الله سعدا للملك من آل سعد

بأنفس الخلق تفدى وإن أبوا كنت وحدي

سيوفه ليس تصدى ولا تقر يغمد[4]

ويفهم من النصوص التي بين أيدينا ومن خلال قراءتي لأبيات القاضي الفاضل استنتجت بأنه برع في الشعر كما برع في الجانب النثري، وقد استطاع أن يجاري التطورات الحاصلة في عصره من خلال اهتمامه بالمحسنات البديعية والجناس، وهي السمة البارزة التي طغت على الشعر في ذلك العصر وهي التنميق اللفظي ، وقد استطاع أن يوظفها في شعره أحسن توظيف ليس بالدرجة التي برع فيها في الجانب النثري ، كما يشهد للقاضي الفاضل أنه أول من أدخل التورية في الشعر، كما نجد أن موروثه الثقافي والحضاري والديني قد طغى على كتاباته سواء النثرية كما سبق وأشرت أو الشعرية من

[1] الصفدي: مصدر سابق، ج18، ص230.

[2] دجاني: القاضي الفاضل، مرجع سابق ، ص132.

[3] نفسه.

[4] الصفدي: مصدر نفسه،ج18|، ص230.

خلال توظيفه لآيات الكتاب العزيز في أبياته الشعرية ، وهذا أظهر مقدرته الأدبية والتحكم في الألفاظ.

الفصل الثالث

القاضي الفاضل سياسيا ومدبرا

المبحث الأول: زمن الخلافة الفاطمية

أولا: رئيس ديوان الجيش

ثانيا: رئيس ديوان الإنشاء

المبحث الثاني: زمن الدولة الأيوبية

أولا: القاضي وتأسيس الإدارة الأيوبية بدمشق

ثانيا: القاضي الفاضل والجهاد ضد الفرنج

ثالثا: القاضي الفاضل بعد صلاح الدين

الفصل الثالث: القاضي الفاضل سياسيا ومدبرا

لقد أدت العديد من الظروف والأحداث إلى عودة عبد الرحيم إلى القاهرة بعدما رحل عنها إلى الإسكندرية سنة 549هـ/1154م وقد شكل خلال الفترة التي عاد فيها إلى القاهرة هذه المرة علاقات مع بعض الوزراء وبعض الشخصيات السياسية التي كان لها دور في تحريك الأحداث وتعكس هذه العلاقات التي أقامها صورة الشاب الطموح للوصول إلى مراتب سياسية في الدولة وقد ساعدته هذه العلاقات إضافة إلى موهبته في الكتابة والإنشاء في القيام بأدوار تاريخية حاسمة في تاريخ المنطقة مصر والشام سواء في زمن الخلافة الفاطمية أو زمن الدولة الأيوبية خاصة فترة صلاح الدين الأيوبي.

المبحث الأول: زمن الخلافة الفاطمية.

أولا: رئيس ديوان الجيش

عاد عبد الرحيم إلى القاهرة سنة 556هـ/1160م في وزارة الملك العادل رزيك* ابن الصالح طلائع بن رزيك (556هـ-558هـ/1160م-1162م) بدعوة من هذا الأخير الذي قابل عبد الرحيم أول مرة في حضرة والده ولعله لمس فيه شيئا أعجبه[1] ويذكر الشاعر عمارة اليمني بأن من محاسن أيامه هي أنه أمر والي الإسكندرية بأن يبعث له عبد الرحيم، وعند وصوله إليه أوكل له رئاسة ديوان الجيش[2].

* هو وزير عراقي الأصل نشأ بمصر في بيت أبيه الصالح بن رزيك وولي أبوه الوزارة للفائز الفاطمي سنة 549هـ/1154م، وتولى الوزارة بعد قتل أبيه في 556هـ (ينظر: الزركلي: مصدر سابق،ج3، ص20).

[1] هادية دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق، ص72.

[2] عمارة اليمني: مصدر سابق، ص ص 53- 54؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق، ج3، ص253؛ ابن خلكان: مصدر سابق، مج3، ص162.

وقد كان الأمر كله في يد الوزراء ولم يكن للخليفة الفاطمي سوى الاسم وذلك لصغر سن العاضد* حتى أنهم تلقبوا بألقاب الملوك[1].

كان المنصب الذي تولاه عبد الرحيم من أعلى المناصب الإدارية في الدولة الفاطمية وكان هذا الديوان على ثلاثة أقسام: ديوان الجيش، ديوان الرواتب، ديوان الإقطاع[2]، أما المقريزي فيقسم هذا الديوان إلى قسمين: ديوان الجيش وديوان الرواتب.

أ- **ديوان الجيش:** ويشترط فيه أن يكون صاحبه مسلما[3] وذا رتبة جليلة ومكانة رفيعة، ويكون بين يديه حاجب وترد عليه أمور الأجناد.

ب- **ديوان الرواتب:** ويشتمل على أسماء كل مرتزق في الدولة وبه كاتب أصيل[4]، ويشتمل هذا الديوان على عدة عروض ولها راتب الوزير في الشهر 5000 دينار، ثم يليه ولدا وأخ، ولم يقرر لولد الوزير 500دينار سوى شجاع بن شاور الملقب بالخامل ....الخ الرواتب[5].

ت- **ديوان الإقطاع:** وهو القسم الثالث الذي أضافه القلقشذي، وكان يختص هذا القسم بما هو مقطع للأجناد[6].

وهذا يبين بأن ديوان الجيش كان معقدا بعض الشيء إذا ما قورن بديوان ثغر الإسكندرية الذي عمل فيه عبد الرحيم أو الدواوين الأخرى.

* عبد العاضد لدين الله الحاكم العبيدي المصري ولد سنة 546هـ/1151م تولى الخلافة بعد وفاة ابن عمه الفائز بايعه طلائع ابن رزيك ووضعه كصورة فقط(ينظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج39، ص ص 273-274).

[1] السيوطي: مصدر سابق، ج1 ، ص609.

[2] القلقشندي: مصدر سابق، ج3، ص492.

[3] المقريزي: الخطط المقريزية، مصدر سابق،ج2،ص401.

[4] القلقشندي: مصدر نفسه،ج3، ص492؛ المقريزي: الخطط المقريزية، مصدر نفسه،ج2، ص401.

[5] المقريزي: الخطط المقريزية ، مصدر نفسه،ج2، ص ص 402-403.

[6] القلقشندي: مصدر نفسه، ج3 ، ص493.

وقد تميز عبد الرحيم في إدارة الجيش بحسن التدبير لأنه من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها رئيس ديوان الجيش لأنه يعمل على إرضاء الأجناد مع العمل على توفير ما يمكن توفيره إضافة إلى التحلي بصفة الأمانة والمعرفة بأحوال البلاد.

تمكن عبد الرحيم من خلال مركزه أن يطلع على نظام الجيش المصري وأسراره وقدراته وإمكاناته وتنظيماته وولائه، وقد أصبح المشرف الإداري على جيوش رزيك بن طلائع[1] والتي بلغ عددها آنذاك 40 ألف حارس و36ألف راجل و10 شوان بحرية بها 10 آلاف مقاتل[2].

بقي عبد الرحيم في ديوان الجيش في عهد رزيك بن الوزير الصالح طلائع بن رزيك مدة تقل عن العامين من 556هـ/1160م إلى 558هـ1162م وهي السنة التي ظهر فيها شاور بن نزار السعدي* هذا الأخير الذي كان واليا على قوص في أيام الوزير الصالح طلائع بن رزيك وتذكر المصادر بأن الوزير الصالح طلائع بن رزيك قلده ولاية قوص ثم ندم على ولايته وأراد أن يعود في الأمر قبل وفاته لكن أوصى ولده رزيك بأن لا يتعرض لشاور بمساءة فإنه لا تأمن عصيانه وقد يخرج عليك فلما استمر رزيك في الوزارة لم ينفذ وصية والده وعزل شاور عن ولاية قوص[3].

تحرك شاور من بلاد الصعيد وجمع الأوباش من العبيد والأوغاد وتوجه إلى القاهرة فخرج إليه رزيك بن الصالح وقاتله[4] وكان العاضد في الظاهر مع رزيك وفي الباطن مع

---

[1] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق.ص ص 74-76

[2] المقريزي: الخطط المقريزية، مصدر سابقو ج1.ص272.

* هو أبو شجاع، شاور ابن مجير السعدي، الهوازني، كان شهما شجاعا فارسا ولاه صالح ولاية الصعيد الأعلى من الديار المصرية ثم ندم على ذلك، ثم تولى الوزارة للعاضد سنة 558هـ/1162م بعد ما ثار على رزيك ابن الصالح (ينظر: ابن خلكان: مصدر سابق، مج2، ص ص 439-440؛ الذهبي سير أعلام النبلاء،ج20، ص514)

[3] المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق، ج3.ص254؛ ابن خلكان: مصدر نفسه، مج2.ص440، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج9، ص460).

[4] سبط ابن الجوزي: مصدر سابق، ج21.ص40؛ ابن إياس: مصدر سابق،ج1، ص5؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ،مصدر نفسه، ج9، ص460.

شاور[1] وكانت الغلبة لشاور وهزم الملك العادل رزيك وقتله ودخل القاهرة وملكها وتلقب بأمير الجيوش وأخذ أموال بني رزيك وذخائرهم[2].

كان مقتل رزيك صدمة كبرى لعبد الرحيم فقد رأى بأم عينه مشهدا دمويا قبيحا كان ضحيته وزيرا محبا إلى قلبه وهوان لم يصف مقتل رزيك فقد رثاه وأهله بقوله:

بأي وجه يراني الناس بعدهم حيا ويا أسف إن قلت: بعدهم

أبكى الذي زال عند التاج دولته إذا بكى الناس من زلت به القدم

وإن ينهدم بكم للدهر بيت علا فإن بيت رثائي ليس ينهدم

بعد مقتل رزيك قرر عبد الرحيم البقاء في القاهرة والعمل في ديوان الجيش إذا ما سمح له الوزير الجديد، وفعلا بقي وخدم كل من شاور وابنه الكامل، وقد تقرب إلى الكامل منذ البداية لأنه كان أقرب منه سنا وبدأ عمله مع الرجل الثاني في الإدارة الفاطمية من حيث المركز وهنا بدأ يبرز عبد الرحيم على الجبهة السياسية[3].

في البداية كان الشاعر والفقيه عمارة اليمني (ت568هـ) هو الأستاذ الأول للكامل ابن شاور منذ كان والده وليا على قوص، وبعدما تولى أبوه الوزارة ابتعد الكامل عن عمارة اليمني[4] وفضل أن يبدأ العمل ضمن عهد جديد فقابل عبد الرحيم في ديوان الجيش فضمه إلى حاشيته الجديدة[5].

تميز الكامل أثناء وزارة والده شاور بالغطرسة والتسلط ومن ضمن الأشياء التي نقهم بها الناس على شاور أن ابنه الكامل عمل مظلة تحمل على رأسه يختص بها الخليفة، إضافة إلى تحكمه في أبيه وترفعه عن الأمراء، فلم تمضي من وزارة شاور تسعة أشهر حتى

---

[1] ابن ثغري بردي: مصدر سابق،ج5.ص329.

[2] المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق،ج3، ص257؛ الدواداي: مصدر سابق،ج7.ص25.

[3] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق، ص ص79-80.

[4] عمارة اليمني: مصدر سابق، ص130.

[5] دجاني: القاضي الفضل دوره التخطيطي، مصدر نفسه، ص81.

خرج عليه ضرغام* في 18 رمضان 558هـ/1162م ووقعت بينهم معركة قتل فيها طي بن شاور أكبر أولاده وأخوه سليمان الطاهري ، كما أسر الكامل فاعتقله ملهم ومنع أخوه ضرغام من قتله[1].

كما أجار ملهم عبد الرحيم ولاشك أنه أجاره لكفاءته الإدارية، وظل عبد الرحيم مع الكامل في معتقلهما تسعة أشهر[2].

في هذه الأثناء توجه شاور إلى الشام بعدما تخلى عنه أهل القاهرة لبغضهم له وقصد السلطان الملك العادل نور الدين محمود زنكي صاحب الشام، وطلب منه النجدة بعدما أطمعه بالديار المصرية وقال له:"سأكون نائبك بها[3]".

فاستقبله نور الدين وأكرمه وجهز له العساكر بقيادة الأمير أسد الدين شيركوه* واصطحب معه ابن أخيه صلاح الدين وجعله مقدم عسكره وصاحب رأيه وساور في جمادى الأولى سنة 559هـ/1163م.

فلما وصلوا إلى القاهرة خرج إليهم ضرغام وقاتلهم لكن الانتصار كان لأسد الدين وقد استعاد شاور منصبه واستولى ثانيه على مصر وقتل ضرغام يوم 28 جمادى الآخر سنة 559هـ/1163م[4].

---

* هو ضرغام ابن عامر ابن سوار ، الملك المنصور، فارس المسلمين، أبو الأشبال اللخمي، المنذري، استولى على الديار المصرية وقُتل من قبل شاور في 28 جمادى الآخرة559هـ/1163م (ينظر: الذهبي : تاريخ الإسلام، مصدر سابق،ج38.ص 283؛ ابن ثغري بردي: مصدر سابق،ج5.ص330).

[1] المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق،ج3،ص261؛ ابن خلكان: مصدر سابق، مج2، ص440؛ ابن ثغري بردي، مصدرسابق،ج5،ص330.

[2] الصفدي: مصدر سابق،ج18.ص204.

[3] سبط ابن الجوزي: مصدر سابق،ج21.ص40؛ ابن ثغري بردي: مصدر نفسه،ج5، ص330؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق،ج16، ص409.

* أبو الحارث شيركوه ابن شادي ابن مروان الملقب بالملك المنصور أسد الدين عم السلطان صلاح الدين تولى وزارة مصر سنة 546هـ/1168م وأقام بها شهرين ثم توفي فجأة يوم السبت 23من جمادى من نفس السنة(ينظر: ابن خلكان: مصدر نفسه، مج2، ص480)

[4] بهاء الدين، ابن شداد(ت632هـ): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين، ط2، تح: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، 1994، ص75؛ ابن ثغري بردي: مصدر سابق، ج5، ص330؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9.ص365؛ سبط ابن الجوزي: مصدر سابق،ج21.ص41؛ ابن خلكان: مصدر سابق،مج2، ص442.

دخل شاور القاهرة للمرة الثانية وكتب سجل توليه بالوزارة ابن الخلال رئيس ديوان الإنشاء وكان آخر سجل كتبه ابن الخلال إذ عجز عن الحركة بعد ذلك قام عبد الرحيم البيساني بالنيابة عنه في الديوان[1] .

كما خرج الكامل ابن شاور من دار ملهم أخي ضرغام وخرج معه القاضي الفاضل وكان معه في الاعتقال كما سبق وأشرت وتأكدت بينهما مودة فادخله إلى أبيه ومدحه وأثنى عليه فسماه حينئذ بالقاضي الفاضل وكان قبل ذلك ينعت بالقاضي الأسعد[2].

وقد أورد لنا القلقشدي رواية مختلفة حول تسميته بالقاضي الفاضل فذكر بأن هذا اللقب كان يطلق على أرباب الأقلام، سواء كان صاحب اللقب يعمل في وظيفة القضاء أولا ، وقد لقب به عبد الرحيم البيساني به لاشتغاله بالكتابة[3].

لما استقام الأمر لشاور بالديار المصرية بمساعدة أسد الدين ظهر منه الغدر ووقع الطمع في نفسه[4] فأشار صلاح الدين على عمه بالرجوع إلى بلبليس* ففعل ذلك وبعث يطلب من شاور رزق الجند فاعتذر وتعلل وأرسل رسلا إلى ملك الفرنج مرِّي** ويدعوه إلى مصر واتفق مع الفرنج على قتال أسد الدين فحاصره في بلبليس مدة شهرين ولم يتمكنوا منه حتى صالحهم مقابل الأموال وعاد إلى الشام[5].

---

[1] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق.ص85.

[2] المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق،ج3.ص272.

[3] القلقشندي: مصدر سابق، ج6.ص22.

[4] ابن شداد: مصدر سابق، ص76.

* بلبليس: مدينة بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ عن طريق الشام (ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج، ص479.

** ملك الفرنج بالشام يعرف في المؤلفات العربية باسم آموري تولى مملكة بيت المقدس الصليبية سنة 558هـ(ينظر: ابن ثغري بردي: مصدر نفسه،ج5، ص332.)

[5] نفسه، ص ص 330-331.

بقي أسد الدين في الشام إلى سنة 562هـ/1166م حيث عاد إلى مصر للمرة الثانية وذلك بسبب مكاتبة شاور للفرنج وأدخلهم القاهرة فاشتد خوف أسد الدين ونور الدين زنكي على البلاد المصرية فسار أسد الدين إلى مصر واخذ معه ابن أخيه صلاح الدين وتوجهوا في ربيع الأول ووقع بينه وبين شاور وأموري ملك الفرنج عدة معارك انتصر فيها أسد الدين واستولى على الصعيد والإسكندرية وأبقى بها صلاح الدين فعاد الفرنج إلى القاهرة وتوجهوا وقصدوا الإسكندرية وحاصروا صلاح الدين مدة 04أشهر[1].

وبعدها وقع الصلح بين شاور وأسد الدين على 50 ألف أخذها ونزل الشام[2] كما عاد الفرنج عن مصر وذلك بسبب فتح المنيطرة من قيل نور الدين زنكي وهي إحدى الحصون بالشام قريبة من طرابلس كانت للفرنج[3].

بدأ القاضي الفاضل بعد معركة الإسكندرية يختلف وسياسة شاور وقد احتمى بالكامل الذي كان ذا سطوة ونفوذ وكتب عن الكامل رسائل التودد إلى نور الدين وراح يلفت نظر الكامل إلى الأخطار المحدقة بمصر بسبب سياسة والده ، فلم يكن القاضي الفاضل كاتب الكامل فحسب بل كان صديقه وقد ساعده على منصب نائب رئيس ديوان الإنشاء لأن ابن الخلال قد أسن واعتكف في منزله[4].

وفي سنة 564هـ/1168م أقبل الفرنج على مصر وغزوها بالعساكر واستباحوا بلبليس وقاموا فيها بمذبحة ثم بعد ذلك حاصروا القاهرة[5] وأشرفوا على أخذ الفسطاط بزعامة أموري فأمر الوزير شاور بإحراق الفسطاط خوفا من أن يمتلكها الفرنج ورحل الناس إلى القاهرة

---

[1] ابن العباد: مصدر سابق، ج6.ص311؛ ابن واصل: مصدر سابق،ج1.ص ص 151-152؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق،ج10، ص ص 4-5؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج16.ص ص 421-422؛ المقريزي: الخطط المقريزية، مصدر سابق،ج1، ص492.

[2] ابن الاثير: الكامل في التاريخ، المصدر نفسه،ج10.ص5؛ ابي شامة: مصدر سابق،ج2.ص 9.

[3] ابن شداد: مصدر سابق، ص77.

[4] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق، ص ص 103-104.

[5] شمس الدين أبي عبد الله ابن عثمان، الذهبي(ت778هـ): دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل مروة، دار صادر،بيروت، 1999، ج2.ص67؛ ابن ثغري بردي: مصدر سابق، ج5، ص334؛ ابن العماد: مصدر سابق،ج6، ص350.

وقيل بأن النار بقيت مدة 51 يوم حتى صار الدخان يرى على مسافة ثلاث أيام فغادر الفرنج الفسطاط[1].

وأرسل شاور إلى الفرنج يطلب مودتهم وصلحهم فأجابه ملك الفرنج بالصلح مقابل ألف ألف دينار فجمع لهم شاور 100 ألف دينار وطلب منهم الرحيل ليجمع لهم المال في هذه الأثناء أرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين صاحب دمشق يستغيث به فقام نور الدين بتجهيز العساكر إلى مصر[2].

وقد كتب القاضي الفاضل بنفسه جميع رسائل الاستنجاد عن الخليفة العاضد وعن شاور وعن الكامل وحتى عن نفسه يدعو نور الدين ويستحثه على احتلال مصر[3].

سار أسد الدين مع ابن أخيه صلاح الدين في منتصف ربيع الأول فلما قرب مصر رحل الفرنج ووصل أسد الدين إلى القاهرة سنة 564هـ/1168م 07 ربيع الآخر[4] في جيش يقال أنه كان حوالي 70 ألف فارس وراجل فجلس أسد الدين في دست الملك وخلع عليه العاضد خلع السلطة وعهد إليه بالوزارة ولقب بالملك المنصور[5] .

وكتب القاضي الفاضل سجل توليه أسد الدين الوزارة بخطه وإنشاءه[6] وأرسل أسد الدين إلى مصر يطلب كاتبا فأرسلوا إليه القاضي الفاضل وكان الكتاب يأملون بان يقتله لكن أسد الدين استكتبه في ديوان الإنشاء[7].

---

[1] ابن إياس: مصدر سابق،ج1، ص54؛ ابن واصل: مصدر سابق،ج1، ص157؛ عمارة اليمني: مصدر سابق.ص80؛ سبط ابن الجوزي: مصدر سابق، ج21.ص149.

[2] أبي شامة: مصدر سابق،ج2، ص33؛ ابن شداد: مصدر سابق.ص80؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ: مصدر سابق،ج10، ص13؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق،ج16.ص428.

[3] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي: مرجع سابق، ص109.

[4] أبي الحسن علي ابن أبي كرم، ابن الأثير(ت630هـ): التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تح: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة،1963.ص139.

[5] ابن العماد: مصدر نفسه،ج6، ص350؛ ابن ثغري بردي: مصدر سابق،ج، ص334.

[6] المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق،ج3، ص302؛ القلقشندي: مصدر سابق،ج10.ص80.

[7] ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق،ج16.ص431.

وقد اختلف في قتل شاور ولكن جل المصادر تذكر بأن صلاح الدين وجرديك اتفقا على قتله وأخبرا أسد الدين فنهاهما، وعندما غادر أسد الدين لزيارة قبر الشافعي أقدم صلاح الدين وجرديك على قتله[1] في 17 ربيع الآخر 564هـ/1168م[2] .

أما ابنه الكامل فاستدعاه الخليفة العاضد وقتله[3] وفي رواية ابن الأثير ولعلها هي الأصح أن الكامل وإخوته بعد قتل أبيهم دخلوا القصر معتصمين فقتلهم العاضد فكان شيركوه يتأسف عليه لبلوغه أنه كان ضد أبيه على قتال أسد الدين[4].

ثانيا: رئيس ديوان الإنشاء

سبق وأشرت بأن آخر سجل كتبه ابن الخلال هو السجل الخاص بوزارة شاور مصر للمرة الثانية سنة 559هـ/1163م ثم بعد ذلك عجز ولزم بيته فحل محله القاضي الفاضل تمسك بنيابة رئاسة الديوان وذلك تكرما لشيخه وأستاذه ابن الخلال حتى لا يحل محله وهو على قيد الحياة.

---

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق،ج10، ص15؛ ابن ثغري بردي: مصدر سابق،ج5، ص335.

[2] ابن خلكان: مصدر سابق،مج2، ص440.

[3] ابن ثغري بردي: مصدر نفسه،ج5، ص335.

[4] ابن الأثير : الكامل في التاريخ، مصدر نفسه،ج10.ص15؛ ابن شداد: مصدر سابق، ص80

كان القاضي الفاضل زمن وزارة أسد الدين رئيسا للديوان وقد سبق وأشرت بأنه كتب سجل توليه للوزارة، كما كتب إلى نور الدين محمود زكي بأن يقر شيركوه بمصر، وأنه أصبح وزيرا للعاضد[1].

وقد مكث أسد الدين في الدين في الوزارة بمصر شهرين واياما توفي فجأة يوم السبت 22 جادي الآخرة 564هـ/1168م[2]، بخناق تولد له جراء إكثاره أكل اللحوم الغليظة ودفن بالقاهرة ثم حمل مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم[3].

بعد وفاة أسد الدين شيركوه تولى بعده صلاح الدين الأيوبي* ابن أخيه الوزارة للعاضد[4].

ويذكر الصفدي بأن صلاح الدين قد اجتمع بالقاضي الفاضل في دار السلطان قبل توليه الوزارة وتحدث إليه القاضي الفاضل سر وقال له:"هل عندك القوة لأن تلي هذا الأمر، فقال صلاح الدين: أني لي بذلك وهناك عدد من الأكابر، فقال له: لا عليك فإني أدبر أمرك فاستعد لذلك" أستدعي القاضي الفاضل إلى مجلس العاضد وأشار عليه بتوليه صلاح الدين للوزارة[5].

---

[1] المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق،ج3، ص ص 302-303.

[2] ابن واصل: مصدر سابق،ج1، ص168؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق،ج10، ص16؛ ابن العماد: مصدر سابق، ج6، ص350.

[3] المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر نفسه،ج3.ص305؛ ابن خلكان، مصدر سابق،مج2، ص480.

* هو أبو المظفر يوسف ابن أيوب ابن شادي الملقب بالملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، صاحب الديار المصرية والشامية ولد بتكريت سنة 532هـ، نشأ في حجر أبيه في الدولة النورية، أصله من أذربيجان توفي في 589هـ(ينظر: ابن خلكان: المصدر نفسه،مج7.ص139؛ ابن إياس: مصدر سابق،ج1.ص ص 55-57.)

[4] ابن الأثير: التاريخ الباهر ، مصدر سابق، ص141؛ ابن كثير: البداية والنهاية: مصدر سابق،ج16، ص 432؛ سبط ابن الجوزي: مصدر سابق،ج21، ص154.

[5] الصفدي: مصدر سابق،ج18.ص205.

فأرسل العاضد من القصر يستدعي صلاح الدين وولاه الوزارة، ولقبه بالملك الناصر ودخل دار الوزارة ولم يلتفت إليه أحد من الأمراء النورية فقام بأمره الداعي ضياء الدين عيسى الهكاري وبدأ يستميل إليه الأمراء النورية[1].

وكتب سجل توليه الوزارة القاضي الفاضل بخطه ومن إنشاء ولما لبث صلاح الدين في الوزارة بذل الأموال وكسب الرجال وقام بالعدل بين الناس فمال إليه الناس وضعف أمر العاضد[2].

ومنذ تولي صلاح الوزارة بدأ بمساعدة القاضي الفاضل يخطط للقضاء على الخلافة الفاطمية وليتمكن من ذلك عليه إضعافها من جوانب شتى ومن بين الخطوات التي قام بها لذلك نذكر:

1-قتل مؤتمن الخلافة والقضاء على شوكة السودان: وذلك في سنة 564هـ/1168م حين قام مؤتمن الخلافة- وهو الحاكم في قصر العاضد- هو وجماعة من المصريين بمكاتبة الفرنج واستدعاهم على البلاد والتقوي بهم على صلاح الدين[3].

وكانت خطة مؤتمن الخلافة أن يخرج صلاح الدين لقتال الفرنج، فيثور هو ومن معه على الباقين من خلفاء صلاح الدين ويقتلوهم ثم يخرجون وراء صلاح الدين فيأتون من ورائه والفرنج من أمامه فيقبضون عليه[4].

كان اكتشاف المؤامرة من مسؤوليات ديوان الإنشاء القاضي الفاضل الذي كان هو العقل المفكر للقضاء على النفوذ الفاطمي في مصر وثبتت المذهب السني[5]، وقد استمد

---

[1] ابن الأثير: التاريخ الباهر، مصدر سابق، ص ص 141-142، ابن واصل: مصدر سابق، ج1.ص168؛ أبي شامة: مصدر سابق،ج2، ص77.

[2] المقريزي: اتعاظ الحنفا: مصدر سابق،ج3.ص ص 309-310؛ القلقشندي: مصدر سابق،ج10، ص 91(ينظر للملحق رقم 4)

[3] ابن الأثير : الكامل في التاريخ، مصدر سابق،ج10.ص ص 18-19؛ ابي شامة: مصدر نفسه،ج2، ص ص 86-87.

[4] المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق، ج3.ص ص 311-312؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق،ج10، ص ص 18-19.

[5] علي محمد الصلابي: صلاح الدين الأيوبي وجهوده للقضاء على الدولة الفاطمية وتحريري بين المقدس،ط2، دار المعرفة، بيروت،2008، ص 182.

القاضي الفاضل أسس تحركاته السياسية من خبرته في القصور الفاطمية وضمن الجيوش ومع الوزراء والمدبرين وأدرك أن هذه المؤسسات هي وكر للمؤامرات ولن تتواني لحظة في الاستنجاد بالفرنج في سبيل الحفاظ على نفوذها خاصة إذا رأت سلطة صلاح خطرا عليها[1].

لما علم صلاح الدين بالمؤامرة لم يظهر لمؤتمن الخلافة، لكن هذا الأخير استشعر ولزم القصر ولم يخرج منه ، وعند ما طال عليه الحال خرج من القصر إلى قرية تعرف بالخرقانية للتنزه، فأرسل إليه صلاح الدين جماعة فقتلوه[2].

لما علم السودان بمقتل مؤتمن الخلافة ثاروا ضد صلاح الدين وكادوا يقضون على حكمه ودامت المعركة بين صلاح الدين والسودان يومين حتى أحرق صلاح الدين محلتهم[3] المعروفة بالمنصورية فتراجعوا منهزمين وأخرجوا من القاهرة بعدما قتل منهم الكثير[4].

وتذكر بعض المصادر بأن العاضد كان يتطلع من المنظرة ويعاين الحرب بين بين صلاح الدين والسودان، وقيل بأنه أمر بمن كان في القصر بان يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة فأمر شمس الدولة بإحراق المنظرة[5].

2- القضاء على الأرمن: قام صلاح الدين بإحراق دار الأرمن التي كانت بين القصرين وكان بها الكثير من الأرمن كلهم رماة وكانوا خلال المعركة التي دارت بين صلاح الدين والسودان يرمون الرماح ليعطلوا جيش صلاح الدين، فلما احترقت عليهم لم يكن يفلت منهم

---

[1] الدجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق.ص130.

[2] العماد الأصفهاني: سنا البرق الشامي، مصدر سابق،ج1، ص ص 43-44؛ سبط ابن الجوزي: مصدر سابق،ج21، ص150.

[3] الدواداري: مصدر سابق،ج7، ص44؛ ابن واصل: مصدر سابق، ج1، ص ص 176-177.

[4] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر نفسه، ج10، ص19.

[5] أبي شامة: مصدر سابق، ج2، ص ص87-88؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا، مصدر سابق، ج3، ص ص 312-313.

أحد[1] وبالقضاء على شوكة السودان والأرمن بات من السهل القضاء على الدولة الفاطمية بل كسرها خلال الخمسة أشهر الأولى من وزارة صلاح الدين وقد ساهم القاضي الفاضل في هذا التغيير الذي مهد الطريق لحكم حكم الدين المطلق في مصر.

وبعد ما قضى صلاح الدين على جند مصر من العبيد السودان والأرمن، جعل عسكره من الأكراد، والأتراك خاصة، وبلغت عدة العساكر بمصر آنذاك اثنا عشر ألف فارس[2].

وقد ساعد القاضي الفاضل صلاح الدين ووجهه في تنظيم جيشه الأيوبي وإدارته ولم يبخل القاضي الفاضل عليه بالمعلومات التي اكتسبها عن جيش مصر من خلال عمله كرئيس لديوان الجيش أو عمله في ديوان الإنشاء وظل طوال مدة عمله مع صلاح الدين يشرف على عساكره ويراقب إعدادها وتنظيمها[3].

وأقام صلاح الدين على القصر بعد قتل مؤتمن الخلافة نائبه بهاء الدين قراقوش* وحصر الأسرة العبيدية في جناح خاص وصار القصر الفاطمي في حكم صلاح الدين ونائبه قراقوش[4].

3-السهر على الإحياء السني في مصر من خلال بناء المدارس السنية، ففي سنة 566هـ/1170م قام صلاح الدين الأيوبي بهدم سجن المعونة وبنى مكانه مدرسة للشافعية بجوار جامع عمر بن العاص، كما أنشا

[1] المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر نفسه،ج3، ص313.

[2] المقريزي: الخطط المقريزية، مصدر سابق،ج1، ص272

[3] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق، ص ص126-127.

* هو أبو سعيد قراقوش ابن عبد الله الأسدي الملقب بهاء الدين خادم صلاح الدين،كان رجلا مسعودا ذا همة عالية وهو الذي بنى السور الدائر بالقاهرة(ت597هـ) ودفن بالتربة المعروفة بالسفح المقطم(ينظر: ابن خلكان: مصدر سابق،مج4، ص ص 91-92.)

[4] سمير علي عزام: حكم قراقوش الأمير المفترى عليه بهاء الدين قراقوش، دار البيارق، الأردن- لبنان، 1999، ص ص 17-18.

دار الغزل به مدرسة للمالكية بجوار الجامع، وعزل قضاء مصر من الشيعة وولى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي فانتشر المذهب الشافعي والمالكي بمصر مع صلاح الدين ، كما أمر أن يذكر العاضد في الخطبة فكان الخطيب يقول:"اللهم أصلح العاضد لدينك" لا غير[1].

وقد اشرف القاضي الفاضل شخصيا على هذه المؤسسات وكان اختيار المدرسين فيها وقراء القرآن والحديث تحت إشرافه ومن اختياره ومن المعروف أن صلاح الدين كان يعتمد عليه وعلى خبرته في اختيار هؤلاء المدرسين[2].

كما تولى الفاضل رئاسة ديوان الإنشاء رسميا بعد وفاة شيخيه وأستاذه ابن الخلال في جمادي الآخرة 566هـ/1170م وبقي يجري عليه ما يحتاج إليه إلى مات[3].

وبدخول سنة 567هت/1171م تم القضاء على الدولة الفاطمية بمصر وذلك بعدما أرسل نور الدين مكاتبة لصلاح الدين يأمره بإقامة الخطبة العباسية بمصر[4] ويذكر المقريزي بأن نور الدين أرسل نجم الدين والد صلاح الدين على مصر سنة 565هـ/1169م من اجل هذا الغرض، لأنه الوحيد القادر على ذلك، فأبطل صلاح الدين الأذان بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر، فكانت أول وصمة دخلت على الدولة ثم أمر أن يذكر في الخطبة يوم الجمعة الخلفاء الراشدين الأربعة[5].

ويذكر ابن الأثير بان صلاح الدين امتنع في البداية واعتذر بالخوف من قيام أهل مصر لكن نور الدين لم يقبل اعتذاره وألح عليه بقطع الخطبة فقطعها[6] للعاضد العبيدي

---

[1] المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق،ج3، ص ص 318-319.

[2] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق، ص136.

[3] ابن خلكان: مصدر نفسه، مج7، ص252؛ العماد الاصفهاني: سنا البرق الشامي، مصدر سابق،ج1، ص58؛ أبي شامة: مصدر سابق، ج2، ص ص 118-119.

[4] ابن واصل: مصدر سابق، ج1.ص197؛ ابن شداد : مصدر سابق، ص86.

[5] المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق،ج3، ص ص 316-319.

[6] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج10، ص33.

وخطب لبني العباس في عهد الخليفة المستضيء بأمر الله العباسي بعد انقطاعها 215سنة[1]، واستفتحها صلاح الدين بإقامة الخطبة في الجمعة الأولى بمصر والثانية بالقاهرة ثم في سائر البلاد وبذلك انتهت الدولة العبيدية بمصر وضربت السكة باسم المستضيء [2].

كان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله، وتوفي يوم الاثنين 10 محرم 567هـ/1171م يوم عاشوراء واستقر الأمر لصلاح الدين[3] فجعل من القاضي الفاضل وزيره وصاحب رأيه واستمر وزيرا له ولولده العزيز[4].

المبحث الثاني: زمن الدولة الأيوبية.

أولا: القاضي الفاضل وتأسيس الإدارة الأيوبية بدمشق.

لقد أصبح صلاح الدين بعد وفاة العاضد صاحب النفوذ المطلق في مصر، ومع ذلك ظل يخشى منافسة نور الدين محمود زنكي[5] فأمر بذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر اسم الخليفة المستضيء العباسي، كما ضرب باسم كل منها في ربيع الآخر 567هـ/1171م [6].

وكان صلاح الدين لا يخرج عن أمر نور الدين ويرجع إليه في جميع الأمور[7] لكن سرعان ما حدثت مناوشات بينهما، حيث كان نور الدين يخشى من نفوذ صلاح الدين في

---

[1] يوسف الملواني، ابن الوكيل(ت1131هـ): تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تح: محمد الششناوي دار الآفاق العربية، القاهرة،1999، ص47.

[2] ابن العماد: مصدر سابق، ج6، ص 364؛ ابن واصل: مصدر نفسه، ج1، ص 200؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر مصدر سابق.ص156؛ العماد الأصفهاني: سنا البرق الشامي، مصدر سابق،ج1، ص 58.

[3] ابن شداد: مصدرنفسه، ص85؛ الدواداري: مصدر سابق، ج7، ص48

[4] السيوطي: مصدر سابق،ج2، ص216.

[5] حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والدين الثقافي والاجتماعي، ط14، دار الجيل، بيروت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،1996، ج04، ص104.

[6] تقي الدين أبي العباس، المقريزي(ت845هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، الكتب العلمية، بيروت، 1997،ج1، ص151.

[7] العماد الأصفهاني، سنا البرق الشامي، مصدر سابق،ج1، ص ص 60-62.

مصر واستقلاله، رغم أن معظم المصادر لم تظهر أية محاولة من صلاح الدين للاستقلال عن زنكي وأن شكوكه لا أساس لها من الصحة.

ورغم ذلك قرر نور الدين الخروج إلى مصر والسبب المباشر لذلك، أن صلاح الدين سار في صفر 567هـ/1171م في بلاد الفرنج لمنازلة حصن الشوبك• فلما سمع نور الدين سار من دمشق قاصدا بلاد الفرنج ليدخل من الجهة الأخرى[1]، فرحل صلاح الدين عن الشوبك إلى مصر وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية ، ومرض والده[2].

فغضب نور الدين لذلك وعزم على دخول مصر وإخراج صلاح الدين منها، لكن هذا الأخير كتب الطاعة لنور الدين فرجع عن مصر[3]، وأرسل له هدية فيها الكثير من الأمتعة والآلات الفضية وخرج يريد بلاد الكرك• والشوبك فحاصرها وجرى بينه وبين الفرنج عدة معارك ثم عاد إلى مصر[4] وقبل عودته توفي والده نجم الدين 27 ذي الحجة 568هـ/1172م[5].

كما استقبل صلاح الدين أبو البقاء خالد بن نصر المعروف بابن القيسراني مبعوث نور الدين وعرفه وعرض عليه الأجناد وأرسل معه هدية إلى نور الدين من باب الطاعة،

• قلعة حصينة من أطراف الشام بين عمان وآيلة قرب الكرك (ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق،ج3،ص370.).

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ: مصدر سابق،ج10، ص ص 35-36 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية: مصدر سابق، ج16، ص409 أبي شامة: مصدر سابق، ج02، ص 148.

[2] ابن واصل: مصدر سابق، ج1، ص221؛ سبط ابن الجوزي: مصدر سابق،ج1، ص172.

[3] المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك: مصدر سابق، ج1، ص154؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق،ج10.ص36؛ أبي شامة: مصدر سابق،ج2.ص149.

• بسكون الراء وهي قرية في جبل لبنان(ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج4، ص514.)

[4] ابن واصل: مصدر سابق، ج1.ص225؛ العماد الأصفهاني: سنا البرق الشامي، مصدر سابق،ج1، ص65.

[5] ابن شداد: مصدر سابق، ص87؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، مصدر نفسه،ج1، ص159.

وكان مقصود نور الدين من إرسال ابن القيسراني هو أن يقرر خراجا على الديار المصرية كل عام[1].

في هذه الفترة كان القاضي الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه، وكانت الكتب والرسائل تصدر من إنشاءه فكتب القاضي عدة رسائل إلى نور الدين على لسان صلاح الدين يخبره فيها عن صلب جماعة من أهل القصر أرادوا الوقوع بصلاح الدين وكاتبوا الفرنج وفي نفس الرسالة أخبره عن سبب تأخره عن امتلاك الكرك والشوبك[2].

ففي سنة 569هـ/1173م أراد جماعة من الشيعة العبيديين إقامة الدعوة وردها للعاضد وكان منهم عمارة اليمني وعبد الصمد الكاتب وداعي الدعاة ابن عبد القوي وغيرهم من الحاشية الموجودة في القصر وذلك أثناء غياب[3] صلاح الدين في الكرك، كما حرض عمارة اليمني شمس الدولة نور نشاه على الميسر إلى اليمن ليضعف الجيش من مقاومة الفرنج، لكن الشيخ زين الدين علي بن نجا الواعظ خانهم وأخبر صلاح الدين فاستدعاهم السلطان فاقروا بفعلتهم، وكان عمارة اليمني معاديا للقاضي الفاضل، لكن هذا الأخير أراد أن يشفع له عند السلطان صلاح الدين، فتوهم عمارة اليمني أنه تكلم فيه فقال:"يا مولانا السلطان لا تسمع منه" فغضب القاضي الفاضل وغادر القصر فأخبره السلطان بأنه كان يشفع لك فندم ندما عضيما وعندما أخذ ليصلب مر من باب القاضي الفاضل فرفض أن يقابله[4] فقال اليمني:

عبد الرحيم قد احتجب *** إن الخلاص هو العجب[5]

---

[1] الذهبي: تاريخ الاسلام، مصدر سابق، ج39، ص25، أبي شامة: مصدر نفسه، ج2، ص183.

[2] القاضي الفاضل: مصدر سابق، ص ص 34-45.

[3] ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق،ج16، ص ص 474-475.

[4] الذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق،ج39.ص ص 54-55؛ ابن واصل: مصدر سابق،ج1.ص ص 245-246؛سبط ابن الجوزي: مصدر سابق،ج21.ص201؛ أبي شامة: مصدر سابق،ج2.ص ص 168-169؛ ابن العماد: مصدر سابق،ج6 . 387.

[5] عمارة اليمني: مصدر سابق، ص183.

ويفهم من هذه الرواية أن القاضي الفاضل كان ذا مكانة عند السلطان صلاح الدين، بحيث كانت كل الرسائل ترد من إنشاءه ولا يستبعد أنه كان له الرأي فبها، فلما أراد أن يشفع عمارة اليمني كان يدرك بأن السلطان سيسمع له ويأخذ برأيه ومشورته لكن عمارة اليمني ساء الظن به.

ورغم ذلك قرر نور الدين المسير إلى مصر لكن الموت سبقته يوم الأربعاء 11شوال 569هـ/1173م وتولى بعده ابنه الملك الصالح إسماعيل وعمره 11 سنة، لكن صلاح الدين حافظ على ولائه لبيت نور الدين بعد وفاته حيث أقام الخطبة لابنه الملك الصالح بمصر، كما نقش اسمه في السكة[1].

وأرسل له كتاب بخط القاضي الفاضل يعزيه بوالده جاء في مستهلها:"لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا[2]".أنزل الله الصبر وضاعف والتأييد والنصر.....وجعل الله الملك الصالح الخلق الصالح، ورزقه ورزق به الزمن الصالح....الخ الرسالة"[3].

لكن سرعان ما وقع الملك الصالح تحت نفوذ وزرائه فقام الخلاف بينه وبين صلاح الدين[4]، فأرسل هذا الأخير رسالة إلى الشيخ شرف الدين بن عصرون(585هـ) قاضي الدولة الأتابكية ثم الأيوبية فيما بعد بخط القاضي الفاضل يخبره باستيائه من الوضع وتعكس فحوى الرسالة، رغبة صلاح الدين في توحيد كلمة الإسلام والجهاد ضد الفرنج[5].

---

[1] المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، مصدر سابق، ج1، ص163؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق،ج16 ص494.

[2] سورة الأحزاب، الآية 21.

[3] القاضي الفاضل: مصدر سابق، ص 48.

[4] حسن إبراهيم حسن: مرجع سابق، ص105.

[5] القاضي الفاضل: مصدر نفسه، ص54.

ثم سار السلطان صلاح الدين في سنة 570هـ/ 1174م من مصر متوجها إلى دمشق بعد مكاتبة شمس الدين بن المقدم الذي تولى تربية الملك الصالح- يستحثه على سرعة الحركة إلى دمشق وامتلاكها[1]، فسار صلاح الدين في 13 ربيع الأول واصطحب معه القاضي الفاضل في 700 فارس فخرج صاحب بصرى واستقبلهم وتحدث مع القاضي الفاضل عن قلة الجيش الذي جاءوا به فقال له القاضي الفاضل أحضرنا معنا المال[2].

وصلوا إلى دمشق في 29 ربيع الأول ودخلوها بعدما إلتقاهم أهل دمشق ورحبوا بهم فقال القاضي الفاضل:"فملكنا دمشق عناية ولم نخطو بحمد الله إلى خطيئة خطوة"[3].

وأكد صلاح الدين بأنه جاء لنصره الملك الصالح وخدمته وليعيد البلاد إليه وتسلم القلعة وأبقى على السكة باسم الملك الصالح[4] ثم ترك أخوه سيف الإسلام بدمشق وسار لأخذ بعض المدن المجاورة كحمص التي تسلمها يوم الثلاثاء، ثم سار إلى حماة وأخذها في جمادي الآخرة ومضى إلى حلب[5] في 03 جمادى الآخرة وحاصرها[6].

وبعد معارك عدة بين صلاح الدين وأهل حلب قطع صلاح الدين الخطبة للملك الصالح وأنزل اسمه من السكة، فأرسل أهل الصالح يريدون الصلح فقبل مقابل أن يكون له ما بيده ويكون لهم ما بيدهم وغادر حلب[7].

---

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، مصدر سابق، ج10.ص66 ؛ العماد الأصفهاني:سنا البرق الشامي، مصدر سابق،ج1، ص81؛ ابن شداد: مصدر سابق،92.

[2] ابن واصل: مصدر سابق،ج2 ، ص19؛ ابن ثغري بردي: مصدر سابق،ج6،ص67.

[3] سبط ابن الجوزي: مصدر سابق، ج21، ص ص 228-229.

[4] المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، مصدر سابق، ج1.ص154، ابن العماد: مصدر سابق، ج6، ص391.

[5] ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق،ج16، ص ص 504-505؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق،ج39. 63؛ العماد الأصفهاني: سنا ابرق الشامي، مصدر سابق، ج1، ص 83.

[6] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق،ج10، ص67.

[7] أبي شامة : مصدر سابق،ج2، ص234؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، المصدر نفسه،ج1، ص168.

وبدخول سنة 571هـ/1175م هادن صلاح الدين الفرنج وأرسل جيشه إلى مصر بسبب الجفاف رفقة القاضي الفاضل واعتمد على الكتابة بدله العماد الأصفهاني الذي عينه القاضي الفاضل وذهب إلى مصر ليكون عينا ومعينا لصلاح الدين هناك ولم يكن أحد أعز إليه من القاضي الفاضل[1].

وقبل ذهابه قام على تنظيم إدارة صلاح الدين بدمشق على أساس أنه وزير لكل من مصر والشام وقد أبقى على النظام النوري، وترك كمال الدين الشهرزوري قاضيا لدمشق[2].

كما كان للقاضي الفاضل دور كبير في تحسين العلاقة بين كمال الدين الشهرزوري• وصلاح الدين، وقارب بينه وبين ابن المقدم وظل القاضي الفاضل يذكر لصلاح الدين التسهيلات التي قدمها ابن المقدم له لدخول دمشق، وذلك من اجل تحسين العلاقة بين صلاح الدين والزعامة والنورية[3].

ومع دخول سنة 572هـ/1176م توفي القاضي كمال الدين الشهرزوري فوصى بالقضاء لابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزوري الذي خدم صلاح الدين بالديار المصرية، لكن الفقيه عيسى الهكاري كان يتعصب للشيخ شرف الدين أبي عصرون وقد كره صلاح الدين عزل ضياء الدين فأفضى بسره للقاضي الفاضل باعتباره كان الوزير وكانت مهمة تعيين القضاة من مسؤوليات الوزير، فلما بلغ ضياء الدين ذلك أشير عليه بترك القضاء ففعل وكتب القضاء إلى الفقيه الأوحد داود والفقيه محي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين بتوقيع سلطاني في الظاهر فقط لأنهما كان في الحقيقة نائبين للشيخ أبي عصرون[4].

---

[1] ابن كثير: البداية والنهاية ، مصدر نفسه، ج16، ص509؛ أبي شامة: مصدر نفسه،ج2، ص255.

[2] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق، ص198.

• هو أبو الفضل الشهرزوري قاضي القضاة كمال الدين محمد بن عبد الله الشافعي ولد سنة 491هـ/1100م وتفقه ببغداد ولاه نور الدين قضاء دمشق سنة 555هـ/1159م توفي 572هـ/1176م (ينظر: ابن العماد، مصدر سابق ج6، ص403).

[3] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق، ص ص 191-192.

[4] ابن واصل: مصدر سابق، ج2، ص ص 49-50-51.

وقد كان القاضي الفاضل حذرا في التعيينات الإدارية، وكان حريصا على عدم إثارة العداء ضد صلاح الدين أو إدارته واحترامه لأشخاص يعتبرهم أكفاء، ولابد أنه هو من أشار على ضياء الدين بالاستعفاء من دون الإعفاء[1].

ثانيا : القاضي الفاضل والجهاد ضد الفرنج

اختار صلاح الدين القاضي الفاضل ليكون لسانه في مكاتبة الخلفاء فأبدى من البراعة ما جعله ينطق عن ضمير صلاح الدين بكل ما يريده وأحله في ذلك منزلة عالية فصرح له بأنه أعز عليه من أهله وأولاده، وقد صحبه في بعض حروبه في ديار الشام وقام على تدبير شؤون الجيش والأسطول والإدارة[2].

ومن أهم المعارك التي اصطحب فيها صلاح الدين القاضي الفاضل نذكر:

وقعة الرملة• 573هـ/1177م: في جمادي الأولى سار صلاح الدين لغزو بلاد الفرنج وجمع معه العساكر وساروا حتى وصلوا عسقلان في 24 جمادي

[1] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع نفسه، ص193.

[2] محمد رجب البيومي: صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، دار القلم، دمشق، 1998، ص222.

• الرملة مدينة بفلسطين أهلها أخلاط من الناس من العرب والعجم(ينظر: اليعقوبي: مصدر سابق، ص166).

الأولى فنهبوا وأسروا وأحرقوا وقتلوا وتفرقوا في تلك البلاد فلما رأوا أن الفرنج لم يظهر ساروا آمنين[1].

ووصل صلاح الدين إلى الرملة وعزم أن يقصد بعض حصون الفرنج حتى اعترضه نهر فازدحم العساكر للعبور فهجم عليهم الفرنج وكان مع صلاح الدين قلة من العساكر لأن الباقي تفرقوا من اجل الغنيمة فباشر ابن أخيه تقي الدين القتال فقتل من أصحابه جماعة كما قتل ابنه أحمد ابن تقي الدين وأسر جماعة من المسلمين من بينهم الفقيه عيسى الهكاري وأخوه الظهير وبقي في الأسر وافتداه صلاح الدين بـ60 ألف دينار معه جماعة كثيرة[2].

فمضى صلاح الدين منهزما فسلك البرية قاصدا مصر لأنه لم يكن لديه حصن قريب يأوي إليه وقد لقي في طريقة مشتقة شديدة وقل عليه القوت والماء وكان من أسباب السلامة أنه اصطحب معه القاضي الفاضل هذا الأخير استخدم في دخول بلاد الفرنج الأدلاء وكانوا لا يفارقونه فلما وقعت الوقعة خرج بدوابه وغلمانه وأصحابه وبث أصحابه في تلك الرمال حتى أخذ بخبز السلطان صلاح الدين وفرق ما كان معه من الأزواد على العساكر وسهل بذلك على صلاح الدين الوعر وأنسة بعد الوحشة وجبر كسره وكانت السلامة والبركة في اصطحابه[3].

بعد عودة صلاح الدين إلى مصر جدد قوته وتوجه نحو الشام أما القاضي الفاضل فظل في مصر ليساعد في تجديد العساكر وليقوم بالحج

---

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق،ج10، ص 85؛ ابن شداد: مصدر سابق، ص96؛ الذهبي: دول الإسلام،مصدر سابق، ج2.ص80؛ الداوداري: مصدر سابق،ج7، ص63؛ ابن العماد: مصدر سابق،ج6، ص405.

[2] ابن كثير : البداية والنهاية، مصدر سابق، ج16، ص ص 522-523؛ سبط ابن الجوزي: مصدر سابق،ج21،ص248؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر نفسه،ج10، ص86.

[3] أبي شامة: مصدر سابق، ج2، ص ص 305-306؛ العماد الأصفهاني: سنا البرق الشامي، مصدر سابق،ج1،ص131؛ ابن واصل: مصدر سابق، ج2، ص61.

في نهاية السنة[1] ولكنه واصل مراسلاته مع صلاح الدين ليثبت من عزمه ويهون عليه هزيمة الرملة ويبشره بالنصر المنتظر ولقد كان لهذا الدور المعنوي الذي قام به القاضي الفاضل من أهم أدواره إذ وقف كالصور الصامد في ظهر صلاح الدين يشجعه على الجهاد ضد الفرنج[2].

كما كان للقاضي الفاضل دور كبير في توجيه حروب صلاح الدين ضد الفرنج حيث حثه على توقيف القتال ضد المسلمين في حلب والموصل وغيرها وذلك حين مرض صلاح الدين وكان في فترة نقاهة سنة 572هـ/1176م زاره القاضي الفاضل وجعله يقسم ويعاهد الله أنه إذا شفي سيكرس جهاده ضد الفرنج كما نذر بإراقة دم صاحب الكرك رينالد دي شاتيون فوضع يده في يد القاضي الفاضل وكرر العهد وبوضع يد صلاح الدين بيد القاضي الفاضل بداية عهد جديد بين العالم والعسكري[3].

ومنذ ذلك الحين عقد صلاح الدين العزم على محاربة الفرنج كما حلف وأقسم للقاضي الفاضل وبحلول سنة 583هـ/1187م كتب صلاح الدين إلى جميع الجهات يستدعيهم إلى الجهاد وبدأ في حشد العساكر ووجه معاركه ضد الفرنج ومن أهم المعارك التي خاضها ضد صلاح الدين ضد الفرنج نذكر :

1- معركة حطين 25 ربيع الآخر 583هـ/1187م

خرج صلاح الدين من دمشق في أواخر شهر محرم وتلاحقت به العساكر الشامية، ولم يأخذ معه القاضي الفاضل لأنه كان مريضا بدمشق، تم خيم بقصر سلامة من

[1] ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج16.ص524؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، مصدر سابق،ج1،ص175؛ ابن واصل: مصدر نفسه،ج2، ص ص 65-66.

[2] دجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق، ص255.

[3] عبد الرحمن عزام: صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني، ط2، تر: قاسم عبده قاسم، دار بلومزبري، قطر، 2013، ص ص 190-191؛ أبي شامة ، مصدر سابق، ج3، ص291؛ العماد الأصفهاني: سنا البرق الشامي، مصدر نفسه، ج1، ص 295.

بصرى•[1] وجعل ابنه على العساكر وسار إلى الكرك يوم 17 ربيع الآخر وذلك لانه سمع أن صاحب الكرك يريد الإغارة على الحجاج[2] فلما سمع بمجيء صلاح الدين رجع إلى حصنه ووصل الحجاج ثم بث سرياه على الكرك والشوبك[3].

في هذه الأثناء سار الملك الأفضل وأغار على أعمال طبرية• وانتصر، كما اجتمع الفرنج من جهتهم لها سمعوا بكثرة العساكر الإسلامية[4]، وفي 23 ربيع الآخر اجتمع الفرنج من جهتهم لما سمعوا بكثرة العساكر الإسلامية، وفي 23 ربيع الآخر اجتمع صلاح الدين بولده الأفضل وافتتحوا طبرية[5].

لما سمع الفرنج بافتتاح طبرية غضبوا وساروا نحوها فرتب السلطان للقائهم وقتل منهم الكثير فساروا يريدون الماء فصدهم السلطان، فارتفع ما بقي منهم إلى تل حطين وأرادوا أن ينصبوا خيامهم فمنعهم المسلمون وهدموا خيمة الملك[6].

وانهزم الفرنج، كما تمكن المسلمون من أخذ صليبهم المعظم المسمى صليب الصلبوت[7].

وأسر منهم جماعة كثيرة مثل ملك الفرنج والإبرنس صاحب الكرك وهو الذي نذر صلاح الدين بدمه فقطع رأسه[8] وقد امتدح الشعراء الملك صلاح الدين بسبب معركة حطين، حطين،

• مدينة بالشام من أعمال دمشق وهي قصبة كورة حوران (ينظر : ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج1، ص441.)

[1] العماد الأصفهاني: الفتح القسي، مصدر سابق ، ص42.

[2] ابن شداد: مصدر سابق، ص126؛ ابن واصل: مصدر سابق،ج2.ص186؛ سبط ابن الجوزي: مصدر سابق، ج21.ص361.

[3] العماد الأصفهاني: الفتح القسي ، مصدر نفسه، ص44.

• اسم أعجمي وهي في الإقليم الثالث من أعمال الأردن بينها وبين دمشق ثلاث أيام(ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر نفسه، ج4، ص ص19-20).

[4] العماد الأصفهاني: الفتح القسي، مصدر نفسه، ص ص 44-45.

[5] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق،ج10، ص145.

[6] العماد الأصفهاني: الفتح القسي، مصدر سابق، ص ص 48-49؛ الذهبي: دول الإسلام، مصدر سابق،ج2، ص ص 89-90.

[7] ابن واصل: مصدر سابق،ج2، ص ص ص186-187-188؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، مصدر سابق ج1،ص207.

[8] سبط ابن الجوزي: مصدر سابق، ج21.ص318؛ العماد الأصفهاني، سنى البرق الشامي، مصدر سابق،ج1، ص295 ؛ابن شداد: مصدر سابق، ص ص 129-129.

أما القاضي الفاضل فكان يتأسف ويذرف الدمع لأنه لم يحضر هذا الفتح العظيم وراح يكتب رسائل التهنئة من دمشق إلى صلاح الدين ومن بين أهم ما كتب له نذكر:"ليهن المولى أن الله قد أقام به الدين القيم وأنه كما قيل أصبحت مولاي ومولى كل مسلم وأنه قد أصبغ عليك النعمتين الباطنة والظاهرة .....، جدد لله شكرا، تارة يفيض من لسانه، وتارة يفيض من جفنه..... [1]

تلك المكارم لا قعبان من لبن وذلك الفتح لا عمان ولا اليمن"[2]كما أدلى القاضي الفاضل بدلوه في التعليق على الأسرى الفرنج ومدى هزيمة الفرنج "ولو رأيت أطناب الخيم في أعناق الأسارى يساقون بها مقربين، لحمدت الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وبلادهم قد ألقت ما فيها وتخلت...."[3]

2- فتح عكا 583هـ/1187م

بذكر ابن جبير بأن عكا كانت قاعدة الفرنج بالشام وشبهها بالقسطنطينية وذكر بأنها كانت ملتقى التجار المسلمين والنصارى[4] وسار اليها صلاح الدين يوم الأربعاء من شهر الآخر وصعد أهلها إلى السور يظهرون الامتناع فتعجب صلاح الدين ومن معه لأن عسكر الفرنج كلهم ما بين قتيل وأسير ولم يبقى إلا القليل ولما أصبح يوم الخميس مستهل جمادى

[1] أبي شامة: مصدر سابق، ج3، ص300؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج16، ص ص 584-585.

[2] ابن كثير: البداية والنهاية: مصدر نفسه ،ج16، ص 585.

[3] ديجاني: القاضي الفاضل دوره التخطيطي، مرجع سابق، ص269.

[4] أبو الحسن محمد بن أحمد، ابن جبير (ت614هـ): تذكرة بالأخبار عن إتفاقات الأصفار، دار صادر ، بيروت [د.ت]، ص276.

الأولى صمم صلاح الدين على القتال فخرج أهلها يريدون الأمان فآمنهم وخيرهم ما بين الرحيل والطاعة وأمنهم على أموالهم وأولادهم وأنفسهم فرحل جميعهم[1].

ودخلها صلاح الدين يوم الجمعة وقد دخل معه القاضي الفاضل لأنه أراد أن يحضر فتوحات صلاح الدين لأنه قد تخلف على معركة حطين فلما دخل رتب المنبر والقبلة وأقيمت الجمعة وسلم السلطان البلد لولده الأفضل وأعطى جميع ما فيه من ضياع وإقطاع للفقيه عيسى الهكاري[2].

وكتب القاضي الفاضل كتاب إلى بغداد يصف فيه فتح عكا وهزيمة الفرنج في حطين ويصف في هذا الكتاب قتل الابرنس[3].

كما افتتح صلاح الدين عدة مدن وبلدان منها قيسارية ونابلس وصيدا و جبيل وبيروت وغيرها ثم توجه لفتح عسقلان[4] وكانت مهمة عندة لعدة أسباب منها أنها على طريق مصر وبفتحها سيسهل خروج العساكر من مصر، كما كانت عسقلان ذات مكانة معنوية لدى القاضي الفاضل فهي المدينة التي ولد بها وكبر بها وفتحت يوم 16 جمادى الآخر 583هـ/1187م[5].

3- فتح بيت المقدس 27 رجب 583هـ/1187م

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج10.ص149؛ ابن شداد : مصدر سابق،ص132؛ سبط ابن الجوزي: مصدر سابق،ج21.ص ص 319-220.

[2] ابن واصل: مصدر سابق،ج2.ص201؛ العماد الأصفهاني: سنا البرق الشامي، مصدر سابق،ج1، ص ص 299-300.

[3] أبي شامة: مصدر سابق، ج3.ص ص 312-313؛ القاضي الفاضل: مصدر سابق، ص231.

[4] أبي شامة: مصدر سابق، ج3، ص321؛ ابن شداد: مصدر سابق،ص132.

[5] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق،ج10، ص ص 153-154.

أراد صلاح الدين تتويج نصره وفتوحاته خاصة نصر حطين بتحرير المدينة المقدسة وطرد الصليبيين منها، بعدما تمكن من استنزاف كامل قواتهم ومنع عليهم كل الإمدادات الأوروبية عن طريق البحر بعدما سيطر على الساحل من بيروت إلى يافا[1].

فأرسل إلى مصر وأخرج الأسطول الذي بها ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب (ت596هـ) فوصل الأسطول إلى عسقلان وسار إلى بيت المقدس[2]، وفي 15 رجب بدأ القتال بين صلاح الدين والفرنج، ثم حاصرهم من جهة الشمال ونصب المنجنيقات[3] فأرسل الفرنج إلى صلاح الدين يطلبون الأمان وتسليم المدينة فرفض وقال :"لأفعل بم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة أربعمائة واثنين وتسعين من قتل وسبي وجزاء السيئة بمثلها"[4].

فهددوه بحرق أموالهم وقتل أولادهم، وتخريب الصخرة والمسجد الأقصى ويخرجوا لمقاتلته أعزاء[5].

فاستشار صلاح الدين أصحابه فاجتمعوا على إعطاء الأمان للفرنج فأجاب صلاح الدين وتسلم المدينة يوم الجمعة 27 رجب روفعت الأعلام الإسلامية على أسواره[6].

كان القاضي الفاضل بدمشق بسبب المرض ولم يحضر فتح بيت المقدس فكتب إليه السلطان صلاح الدين يبشره بالفتح:"أما الفتح فمن جملة بركات همته.... فإن الله تعلى سهل ما سجل ، أهل الدهر بأنه صعب....وخصنا بهذا الشرف وألحقنا في هذه الفصيلة بصالحي السلف وقد بدل الكفر بالإيمان والناقوس بالآذان ....."[7].

---

[1] وائل عبد الرحيم أعبيد: القدس في العهدين الفاطمي والأيوبي، دار مجدلاوي، الأردن، 2005، ص ص98-99.

[2] بسام العسلي: قادة الحروب الصليبية المسلمون، دار النفائس، بيروت، 2012، ص117؛ سبط ابن الجوزي: مصدر سابق،ج21، ص321.

[3] المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، مصدر سابق، ج1، ص210.

[4] العماد الأصفهاني: الفتح القسي، مصدر سابق، ص67.

[5] الداوداري: مصدر سابق، ج7، ص84.

[6] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج10، ص156؛ ابن شداد: مصدر سابق، ص135.

[7] أبي شامة: مصدر سابق، ج3، ص353.

وكتب القاضي الفاضل من جهته رسالة إلى الخليفة العباسي المستضيء يبشره بهذا الفتح العظيم:"أدام الله تعلى أيام الديوان العزيز.....كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التباشير لصبح هذه العزمة والعنوان لكتاب وصف النعمة..... استرد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا وحققت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم...."[1].

4- دور القاصي الفاضل في الجملة الصليبية الثالثة

ما إن اجتمعت الفلول الصليبية المنهزمة بمدينة صور حتى أعزاها اجتماعات، وكثرتها على نقض العهد الذي أبرمته مع صلاح الدين[2] وتوجهوا إلى حصار مدينة عكا واعتمدوا على الإمدادات من أوروبا 585هـ/1889م[3] وبينما كان الصليبيون يحاصرون مدينة عكا كانت الممالك النصرانية تستعد لحرب صليبية ثالثة اثر الانتصارات التي حققها صلاح الدين"[4] .

كان القاضي الفاضل في هذه الأثناء في مصر يرتب للسلطان أموره في تجهيز العساكر وتعمير الأسطول وحمل المال ونقلها إلى مدينة عكا، وكان السلطان يكاتبه في مهماته وترجع وأجوبته بأحسن عباراته مشيرا وناصحا وباحثا عن مصالح الإسلام[5].

وفي ذي الحجة 586هـ/1190م وصل القاضي الفاضل إلى معسكر صلاح الدين الذي كان متشوقا لقدومه وكان السلطان شديد الوثوق به دائم الاعتماد عليه والاستناد إلى إحسانه وكان يكاتبه أثناء غيابه عنه ويستشيره في كل الأحوال وعندما وصل إليه استأنس به وبتدبيره ومشورته[6].

---

[1] ابن خلكان: مصدر سابق، مج7، ص ص 179-180.

[2] محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط2، دار الغرب الإسلامي، تونس،1988،ص86.

[3] ابن الأثير الكامل في التاريخ، مصدر نفسه،ج10، ص 183.

[4] المطوي،مرجع نفسه، ص88.

[5] أبي شامة : مصدر سابق،ج4، ص101.

[6] نفسه: ص ص 139-140.

وكتب رسائل إلى الديوان بغداد يصف فيها الصعوبات التي واجهوها صلاح الدين في مواجهة الحملة الصليبية الثالثة، وضرورة المساعدة لرد العدوان الصليبي على عكا[1].

وقد اشتد الحصار على عكا 587هـ/1191م وتمكنوا من امتلاكها وأخذها من صلاح الدين وفي 20 شعبان 588هـ/1192م وقع الصلح بين صلاح الدين والصليبين لمدة ثلاث سنوات، وكان هذا الصلح قاطعة الحروب التي آثارها صلاح الدين ضد الفرنج[2].

وبحلول سنة 589هـ/1193م مرض صلاح الدين وكان معه القاضي الفاضل وابن شداد وابنه الأفضل بدمشق وتفاقم عليه المرض وتوفي ليلة الأربعاء 27صفر ودفن بداره بالقلعة المنصورة ، وقد دفن معه القاضي الفاضل سيفه الذي كان معتادا على حمله في الجهاد[3].

ثالثا : القاضي الفاضل بعد صلاح الدين

1/ اعتزل السياسة والدعوة إلى الوحدة.

بعد بوفاة صلاح الدين 589هـ/1193م دخلت الدولة الأيوبية في صراع بين خلفاء صلاح الدين سواء أبناءه أو إخوته فدمشق تملكها ولده الأكبر الأفضل نور الدين علي وكل

---

[1] ابن واصل: مصدر سابق، ج2، ص ص 352-353.

[2] العماد الأصفهاني: الفتح القسي، مصدر سابق، ص269؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ،مصدر سابق، ج10، ص ص 205-206؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك،مصدر سابق،ج1.ص 224.

[3] ابن شداد : مصدر سابق، ص 259؛ ابن واصل: مصدر سابق، ج2،ص ص 416-417.

الساحل والبيت المقدس وبعلبك وبصرى[1]، وكان ولده الطاهر غازي بحلب فاستولى عليها وكان بحماة محمود بن تقي الدين عمه فأطاعه وكان بحمص شيركوه محمد بن شيركوه أطاع الملك الأفضل وكان العادل أخ السلطان صلاح الدين بالكرك والشوبك فأخذها وكان ابنه العزيز عماد الدين أبي الفتح بالديار المصرية فتملكها[2].

كان القاضي الفاضل أثناء وفاة صلاح الدين بدمشق وبعدما تولى الأفضل الأمور إستوزر ضياء الدين ابن الأثير وفوض إليه الأمور كلها، وقد أشار عليه بإبعاد أمراء أبيه وأكابر أصحابه وأن يستجد له أمراء غيرهم فتوجه معظمهم إلى الملك العزيز بمصر، ولما رأى القاضي الفاضل من الملك الأفضل ووزيره ملا يعجبه عزم على مفارقة الأفضل والتوجه إلى الديار المصرية فستأذن الملك الأفضل فأذن له بالميسر .

ولما وصل القاضي الفاضل إلى الديار المصرية خرج الملك العزيز إلى استقباله وأعظمه غاية الإعظام وأحله محل والده وصار لا يصدر أمر إلا عن مشورته[3].

وبداية من 590هـ/1194م خرج الملك العزيز عثمان من مصر بعساكر إلى دمشق فخرج الملك الأفضل من دمشق لمحاربة أخيه العزيز وكان الملك الأفضل قد سير قبل ذلك إلى أخيه العزيز رسولا يسأله عن سبب خروجه من مصر إلى الشام فلم يصرح له الملك العزيز[4].

فسار الأفضل إلى عمه العادل يستنجده واتفقا العادل والأفضل وسارا وراء العزيز إلى مصر وأرسل العادل إلى العزيز يطلب القاضي الفاضل وكان قد اعتزلهم وانقطع إلى داره فأرسل إليه العزيز يسأله فامتنع فأقسم له وتضرع إليه فخرج إلى العادل فأكرمه وتحدث معه

---

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ: مصدر سابق، ج10، ص225؛ أبي شامة: مصدر سابق، ج4، ص238.

[2] ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج16.ص ص 658-659،؛ ابن إياس: مصدر سابق،ج1.ص59؛الدواداري: مصدر سابق،ج7، ص123.

[3] ابن واصل: مصدر سابق، ج3، ص ص11-12؛ ابن ثغري بردي: مصدر سابق، ج6، ص ص 109-110.

[4] ابن واصل: مصدر سابق، ج3، ص ص26-27؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، مصدر سابق،ج1، ص ص 228-229.

بما قرره وعاد إلى العزيز، وقد قرر الفاضل مع العادل رد للأسدية إقطاعهم وأملاكهم وقال الأفضل المصلحة أن تمضي إلى أخاك وتصالحه فتصالحا وعاد الأفضل إلى دمشق[1] .

لما عاد الأفضل إلى دمشق ازداد وزيره من الأفعال القبيحة والأفضل يسمع منه ولا يخالفه فكتب أعيان الدولة إلى العادل، فأرسل إلى الأفضل بعزل هذا الوزير سيء التدبير فرفض[2]، فسار العزيز رفقة عمه العادل فدخلا دمشق قهرا وأخرجا منها الأفضل ووزيره الذي أساء التدبير وخطب للعزيز بمصر ثم ترك عمه العادل بدمشق وعاد إلى مصر يوم الاثنين تاسع شعبان 592هـ/1196م وأخرج الأفضل من دمشق إلى صرخد وهرب وزيره ابن الأثير الجزري[3].

وبحلول سنة 595هـ/1198م توفي العزيز صاحب مصر في شهر محرم وعمره 28سنة[4] وقد كتب القاضي الفاضل كتاب تعزية للملك العادل "أدام الله سلطان مولانا العادل..... ولما قدر ما قدر في الملك العزيز رحمة الله عليه وتحياته مكررة إليه، من انقضاء مهله، وحضور أجله، كانت بديهة المصاب عظيمة ، وطالعة المكروه أليمة ، فرحم الله ذل الوجه ونضره ، ثم السبيل إلى الجنة سيره"[5].

وقد أوصى لولده السلطان المنصور ناصر الدين وكان عمره 09 سنين، وأن يكون مدبره بهاء الدين قراقوش فأجلس في سرير الملك يوم الاثنين 11 محرم ، ووقعت منازعة بين الأمراء فطعن عدة منهم في قراقوش، بأنه مضطرب الرأي وساروا إلى القاضي الفاضل لاستشارته فامتنع عليهم[6] وفي رواية ابن واصل أن

---

[1] سبط ابن الجوزي: مصدر سابق، ج22، ص34؛ الدواداري: مصدر سابق،ج7، ص ص128-129.

[2] ابن ثغري بردي: مصدر سابق، ج6.ص113؛ ابن واصل: مصدر نفسه،ج3، ص ص 61-62.

[3] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق،ج10، ص ص 242-243؛ ابن كثير : البداية والنهاية، مصدر سابق، ج16، ص 671.

[4] ابن العماد: مصدر سابق، ج6، ص521؛ الذهبي: دول الإسلام، مصدر سابق، ج2، ص 102.

[5] أبي شامة: مصدر سابق، ج4، ص ص260-261؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج16، ص ص 684-685.

[6] المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص258.

القاضي الفاضل قال لهم تشاوروا في بعضكم وامخضوا الرأي واعرضوه لي فتشاورا واتفقوا على مكاتبة الملك الأفضل وعرضوا ذلك على القاضي الفاضل فقال لهم "قد أصبتم الرأي، واحترتم الذي اختاره السلطان الملك الناصر رحمه الله ، وهو ألين عريكة وأسهل تناولا من غيره"[1].

دخل الملك الأفضل القاهرة في ربيع الأول ثم تجهز وخرج بالعساكر إلى الشام لمحاصرة عمه العادل وبقي يحاصر دمشق إلى سنة 596هـ/1199م ثم رحل خائبا بعدما رحلت الملوك عليه وسار إلى القاهرة، وأصلح حاله للقاء العادل ولما التقيا انهزم الأفضل ودخل إلى صرخد[2].

2- وفاة القاضي الفاضل:

توفي القاضي الفاضل يوم 06 ربيع الآخر 596هـ/1199م وتذكر جل المصادر بأنه توفي يوم دخل العادل مصر هذا الأخير إستوزر له ابن شكر وكانت بينه وبين القاضي الفاضل وحشة فخاف أن يستدعيه ويهينه فقام تلك الليلة يبكي ويتضرع ودعا لنفسه بالموت فأصبح ميتا[3].

وحكي عن الملك المحسن بن صلاح الدين: اتفق يوم دخول العادل إلى القاهرة دخل من باب النصر، وخرجنا بجنازته من باب زويلة[4]، كما يذكر القاضي ضياء الدين الشهر زوري أن القاضي الفاضل لما سمع بدخول العادل دعا على نفسه بالموت[5] .

---

[1] ابن واصل : مصدر سابق، ج3، ص ص 89-90؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق،ج، ص256.

[2] الدواداري: مصدر سابق،ج7، ص141.

[3] ابن العماد: مصدر سابق، ج6، ص532؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك،مصدر سابق، ج1، ص266؛ الدواداري: مصدر سابق،ج7، ص ص141-142.

[4] ابن ثغري بردي: مصدر سابق، ج6، ص 140؛ سبط ابن الجوزي: مصدر سابق،ج22، ص84.

[5] الذهبي : سير أعلام النبلاء، مصدر سابق،ج21، ص341.

ويذكر الصفدي بأن العادل كان يكره القاضي الفاضل لأنه أخذ منه حلب وأعطاها للعزيز عثمان في أيام صلاح الدين الأيوبي ومن هذا يعرف المرتبة التي كان يتمتع بها القاضي الفاضل عند السلطان صلاح الدين[1].

وليلة وفاته صلى العشاء وجلس في مدرسته مع الفقيه ابن سلامة مدرسها وتحدث معه ما شاء، وطالت المسامرة وانفصل إلى منزله صحيح البدن، فصيح اللسان، ثم أصيب بحمى فبادر إليه ولده ولم يسمع له إلا أنين خفي فعلم أنه مات[2] .

ويذكر ابن الأثير أن الملك العادل حضر الصلاة على القاضي الفاضل[3] بينما يذكر ابن كثير وجل المصادر بأن العادل لم يحضر جنازة القاضي الفاضل بل زار قبره في اليوم الثاني من دخوله القاهرة وأن القاضي الفاضل مات ولم ينله أحد بأذى ولا رأي أحد في الدولة أكبر منه شأنا [4]، وتوفي وعمره 70 سنة ودفن بالقرافة[5].

[1] الصفدي: مصدر سابق،ج18، ص ص212-213.

[2] أبي شامة: مصدر سابق، ج4، ص279.

[3] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق،ج10، ص 265.

[4] ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج16، ص699.

[5] ابن العماد: مصدر سابق، ج6، ص532؛ ابن واصل: مصدر سابق، ج3، ص ص109-103.

خـــاتمـــة

الخاتمة

حاولت من خلال هذه الدراسة رسم صور للقاضي الفاضل في عصره وذلك من خلال التركيز على مختلف الأدوار التي لعبها وأهم النقاط التي أثرت في تكوين شخصيته وأهم الاستنتاجات التي توصلت إليها في بحثي هذه:

يعتبر القاضي الفاضل من بين أهم الشخصيات التي ملكت السلطة العلمية والسلطة السياسية، حيث تقمص القاضي الفاضل شخصية السياسي المدبر القيادي الناجح ، إضافة إلى كونه اكتسب العلم وتظلع في الأدب من نثر وشعر.

وكان انتماء القاضي الفاضل إلى عسقلان ومولده بها أثر كبير في تكوين شخصيته كونها المدينة الوحيدة الصامدة في وجه الفرنج، وقد كانت الفترة التي قضاها القاضي الفاضل بعسقلان رغم قصرها إلا أن بذور المقاومة والجهاد لديه بدأت منذ تلك الفترة المبكرة من حياته شهد تحرير الرها سنة 539هـ/1144م على يد نور الدين زنكي وتفاعل مع هذه الانتصارات إضافة إلى التربية التي تلقاها على يد والديه والتي كانت تربية دينية حيث حفظ القرآن في سن مبكرة.

كان القاضي الفاضل شديد الاهتمام بفنون الكتابة ، ما جعل والده يرسله إلى مصر لتدرب على فنون الكتابة وهناك تدرب على يد أمهر الأساتذة وأشهرهم في الدواوين المصرية مثل الشيخ الموفق ابن الخلال(ت566هـ) ، وقد كانت مصر وخصوصا القاهرة في تلك الفترة تعرف تطورا كبيرا في فنون الكتابة ومنذ دخل القاضي الفاضل إلى الدواوين المصرية بدأ يتطور شيئا فشيئا، كونه كان فتى طموحا يسعى إلى الوصول إلى أعلى المراتب في الدواوين المصرية.

بدأ القاضي الفاضل يحقق طموحاته وأول منصب عالي عرض عليه هو رئاسة ديوان الجيش وصولا إلى رئاسة الإنشاء وهو أقصى ما تمناه القاضي الفاضل من مناصب.

وطوال الفترة الزمنية التي قضاها القاضي الفاضل في مصر زمن الدولة العبيدية شهد تفكك سياسي واضح نتيجة الصراعات التي كانت داخل الدولة الفاطمية حول منصب الوزارة، هذا المنصب الذي حبكت بشأنه العديد من المؤتمرات تخللتها عدة اغتيالات في حق بعض الوزراء، إضافة إلى تدخل حرم القصر في الأمور السياسية مثل المؤامرة التي شاركت فيها ست القصور عمة العاضد والتي راح ضحيتها الملك الصالح طلائع بن رزيك(556هـ)، وقد شهد القاضي الفاضل بعض هذه الاغتيالات مثل قتل الملك العادل رزيك بن الصالح (ت558هـ) وهو أحد الوزراء المحبين إلى قلبه وتولى شاور بن السعدي مكانه للوزارة (ت564هـ) .

تميز القاضي الفاضل بحنكة سياسة عالية وهي التي اكتسبها نتيجة مشاهدته لمختلف المؤامرات في القصور الفاطمية، وكان ينجو في كل مرة من هذه المؤامرات فبعد مقتل الملك العادل بقي القاضي الفاضل في ديوان الجيش وعمل رفقة شاور وابنه الكامل لكن سرعان ما اختلف القاضي الفاضل مع سياسة شاور نتيجة استنجاد هذا الأخير بالفرنج، وكتب مختلف رسائل الاستنجاد إلى نور الدين وأسد الدين ، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على روح الجهاد العالية لدى القاضي الفاضل، هذه الروح عكستها مختلف رسائله حيث كان ينبذ تقاتل المسلمين فيما بينهم وينادي إلى توحيد الجهود لمقاومة الفرنج وإخراجهم من البلاد .

ونتيجة لحبه لبلاده ومساعدته لأسد الدين ونور الدين بقي القاضي الفاضل في ديوان الإنشاء وساهم في توليه صلاح الدين للوزارة وبدأ في مساعدته للقضاء على الشيعة العبيديين وإعادة الإحياء السني بمصر.

كان منصب رئيس ديوان الإنشاء من أخطر المناصب وكان يتطلب حنكة عالية ومعرفة بمختلف الدواوين والمراسلات ونتيجة تمركز القاضي الفاضل في هذا المنصب

كشف العديد من المؤامرات التي حبكت ضد صلاح الدين وتمكن من مساعدته على القضاء عليها ثم القضاء على الخلافة الفاطمية نهائيا.

وتعد الأدوار التي لعبها القاضي الفاضل مع صلاح الدين من أهم أدواره التاريخية حيث صار الرجل الثاني في الدولة الأيوبية بمصر والشام ووزير صلاح الدين ومستشاره الأول، كما كان يرجع إليه في كل الأمور المتعلقة بالدولة وكان صلاح الدين يقول في ملأ من الناس "لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل" هذه المقولة تظهر بوضوح مكانة القاضي الفاضل عند صلاح الدين ودرجة اعتماده عليه في تسيير دولته وتنظيم جيوشه.

كما كان القاضي الفاضل هو موجه جهاد صلاح الدين نحو الفرنج ولسانه الناطق في مختلف المراسلات التي كان يبعثها صلاح الدين إلى عدة جهات إلى مختلف الأمراء أو إلى الخليفة العباسي ببغداد ، إضافة إلى أنه كان يلعب دورا مهما في مواساة صلاح الدين أثناء الانهزام في المعارك كمعركة الرملة 573هـ/.....م أو أثناء استيلاء الفرنج على عكا سنة 587هـ/1191م حيث كان كالجدار يقف في ظهر صلاح الدين ويقويه ويشجعه على مواصلة الجهاد ضد الفرنج .

ورغم مكانة القاضي الفاضل في الدولة وكثرة انشغاله بمشاكلها، إلا أنه كان شديد الاهتمام بالساحة الفكرية حريص كل الحرص على الطلبة والعلماء وكان يقدم لهم مختلف المساعدات لتشجيعهم على البذل والعطاء وكان مجلسه حافلا بمختلف النخب العلمية من الفقهاء والأدباء والشعراء....الخ.

وأثرى القاضي الفاضل الساحة الفكرية ببناء مدرسة بالقاهرة أوقفها لطلبة المالكية والشافعية وجلب إليها أشهر الأساتذة وألمعهم كما زودها بمكتبة ضخمة حوت مختلف الكتب في مختلف التخصصات .

كما كان شديد الاهتمام بعلوم القرآن والحديث فبنى دار للحديث بدمشق وقد تولى هذه الدار ألمع شيوخ الحديث.

أما فيما يخص مجال الأدب فهو المجال الذي برع فيه القاضي الفاضل حيث تزعم مدرسة البديع لابتكاره أسلوب مميز على طريقة ابن العميد وأسرف في البديع والتنميق والإغراق في التورية والجناس، وقد قلده مختلف الكتاب في تلك الفترة لأن هذا الأسلوب هو ميزة العصر، والقاضي الفاضل أسرف في أسلوب الزينة من أجل إرضاء الفن للفن، فهناك فرق كبير بين نظرتنا للأدب في وقتنا الحالي وبين نظرته هو في ذلك العصر، فالنقاد في العصر الحالي يعتبرونه انحطاط ويطلقون على هذا الأدب بالطريقة العقيمة، لكن في ذلك الزمن كانت السمة الغالبة على الكتابة والدليل هو أن براعة القاضي الفاضل وأسلوبه في الكتابة هي التي أوصلته إلى درجة عالية في الدولة خاصة زمن صلاح الدين الأيوبي، لذلك لا يمكن اعتبار الطريقة التي ابتكرها القاضي الفاضل طريقة عقيمة على الأقل في ذلك الزمن.

وأخيرا يمكن القول بأن القاضي الفاضل كان يمثل الشخصية المثقفة في ذلك الزمن وبراعته الأدبية إلى جانب الكتابة الديوانية أهلته للعب أدوار سياسية حاسمة تميز فيها بحنكة سياسية عالية ، من جهة أخرى نجد أن مكانته السياسية في الدولة – كونه أصبح وزيرا صلاح الدين ومستشاره الأول– مكنته من إثراء الساحة الفكرية بكل من مصر والشام بتشييده مدرسة ودار للحديث ، أي أن الجانب العلمي منه خدم الجانب السياسي ، والجانب السياسي خدم الجانب العلمي ، لكن نتيجة الارتباط الذي كان بينه وبين صلاح الدين نجده يعتزل السياسة بعد وفاة صلاح الدين (ت589هـ/ 1193م) ، وبقي طوال هاته الفترة يدعو للوحدة كما كان دائما وبقي في مدرسته إلى غاية وفاته سنة 596هـ/1200م.

الملاحق

الملحق رقم:01

رسالة إلى الديوان العزيز ببغداد في سنة سبع وثمانين وخمسمائة عن صلاح الدين

مَا قَطَعَ الخادمُ الخدمَ، إلا لأنه قد أَضْجَرَ وأسأَمَ، من المطالعة لخبر هذا العدوِّ الذي استفحل أمرهُ ، واستشرى شرُّه فإن الناس ما رأوا ولا سمعوا عدوًّا حاصرًا محصورًا ، غامرًا مغمورًا ، قد تحصَّن بخنادق تمنع الحائز من الحواز ، وتعوق الفرض عن الانتهاز، ولا تقصَّر عدَّتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجلٍ، قد أفناهم القتل والأسر، وأكلتهم الحرب، ولفظهم النصر، وقد أمدَّهم البحر بالبحار وأعان أهلُ النار، واجتمع في هذه الجموعِ ، من الجيوش الغربية والأَلْسِنَةُ اَلأَعْجَمِيَةُ ، من لا يُحصرُ مَعْدُودُهُ ، ولا يتصور في الدنيا.

موجوده فما أحقهم بقول الطيب

تَجْتَمِعُ فيه كُلَّ لسن وأُمَّةٍ وَمَا يُفْهَمُ الحَدَّاثُ إلاَّ التَرَاجُمُ

وهذا العدُّوُ زرع لا يحصده إلا جمع كرجل الجراد، وهذه عكا عالة على الإسلام إن لم تقم بها بغداد، وهذه القرية حاضرة البحر لا يحفظها على الدين إلاّ نفرٌ سواء فيه الحاضر والباد ، وهذه الأوتاد الرَّاسِيَةُ للفكر لا يقولها إلا ضرب الأوتاد، وهذه النار المضرمة لا يطفئها إلا عزم يفضي بها إلى ما تفضي إليه النار، من الزناد، ولا ترفع الدَّعْوَةُ إلاَّ مُجيبهاَ، ولا تُوصفُ الأدْوَاءُ إلاَّ لِطبِيبِهَا، وحضرة الخلافة المعظمة شَرَّفَ الله محضرها، وأيد نصرها...[1] .

[1] القاضي الفاضل: مصدر سابق ، ص ص ص 254-255-256.

الملحق رقم:02

رسالة القاضي الفاضل إلى الصفي بن القابض يصف له ما لَقيَهُ في طريقه إلى مصر وركوبه البحر سنة خمسمائة وخمس وسبعين.

خرجنا من مكة يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة، .....ووصلنا إلى جُدَّة يوم الأحد السابع والعشرين من ذي الحجة ، وركبنا البحر يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه ، وبتنا فيه لَيْلَتِيْ الأربعاء والخميس ، ورَمتنا الرّيح إلى جزيرة بالقرب من بلاد اليمن تسمى دبادب . وكانت إحدى اللَّيْلَتَيْن في البحر من الليالي البلاء ، وبالله أُقسم لقد شاب بعض رؤوس أصحابنا في تلك الليلة، وأيسوا من الأنفس ، وتمنوا معاجلة الأَمْرِ وتقصير العذاب ، وظنوا أنهم أُحيط بهم ، وعاتبوا أنفسهم ، ثم احتجوا عليها بالأقدار التي لا حيلة فيها.

وصبرنا إلى فرج الله سبحانه ، ونزلنا البرية بحيث لا ماء يشرب ولا جمل يُركب ، ونفذ إلى البجاة النازلين ليس على ساحل البحر، فأحضروا جمالا ضعيفة، أجرتها أكثر من ثمنها وثمن ما تحمله، فركبنا ووصلنا إلى عيذاب بعد عشرة أيام ، وقد هلكتا ضُعفا وتعبا وجُوعناً وعطشاً، لأن الخلقَ كانوا كثيرا ، والزاد يسيراً.

وركبنا البرية من عَيْذَابْ إلى أُسوان، فكانت أشق من كل طريق سلكناها ومن كل مسافة قطعناها لأن وردنا الماء في إحدى عشر ليلة مرتين ، وكانت الهمة قاصرة في المزاد ، وكانت البلوى عظيمة في العطش ، فأما الحزون والوعر فهي تزيد على ما في برية الشام بكونها طريق بين جبلين كالدرب المتضايق ، والرقاق المتقارب وحرُّ الشمس شديد[1].

[1] أبي شامة: مصدر سابق،ج03،ص ص 46-47-48

الملحق رقم:03

رسالة القاضي الفاضل إلى بعض إخوانه، يستوحش ويتشوق إليهم

فيا رَبِّ إن البَيْنَ أَضْحَتْ صُرُوفُهُ * عليَّ ، ومالي من مُعين فكن معي

على قُرْبَ عُذَّالي وبُعْدُ أَحِبَّتِي * وأَمْواهِ أَجْفانِي وَنِيرَانُ أَضْلُعِي!

هذه تحية القلب المعذَّب، وسريرةُ الصبر المذبذب ، وظُلَّمَةُ عزم السلوِّ المكذَّب أصدرتها إلى المجلس وقد وَقَدَ في الحشاَ نارهاَ ، الزفيرُ أوراهاَ ، والدَّموعُ شِرارهاَ، والشَّوقُ آثارهاَ ، وفي الفؤادِ ثارَهاَ:

لَوْ زَارَنَي مِنْكُمْ خَيَالٌ هَاجِرٌ * لَهُدْتُهُ فِي ظُلُمَائِهِ أَنْوَارُهَا

أسفا على أيام الاجتماع التي كانت مواسم السرور والأسرار، ومباسم الثغُور والأوطار، وتذكر الأوقات عذُبَ مذاقها ، وامتدَّ بالأنس رواقها ، وزوَّجت بكرها ، ودوعب ذكرها:

وَالله مَا نَسِيَتْ نَفْسِي حَلاَوَتَهاَ! * فَكَيْفَ أَذْكُرُ أنِّي اليَوَمَ أَذْكُرُهَا؟.

ومنذ فارقت الجناب ، لازال جنا جناية نضيرا ، وسنا سنائه مستطيرا وملكه في الخافقين خافق الأعلام ، وعزه على الجديدين جديد الأيام ، لم أقف منه على كتاب تَخْلُفُ سُطورهُ ما غسل الدمع من سوادِ ناظري ، ويقدم بياض منظومة ومنثوره وما وزَّعه البين من سويداء خاطري...[1]

ولم يبقى في الأحشاء إلا صُبابة * من الصبر تجري في الدموع البوادر.

[1] القلقشندي: مصدر سابق،ج1،ص ص 274-275.

الملحق رقم: 04

سجل تولية صلاح الدين الأيوبي الوزارة المصرية بخط القاضي الفاضل عن العضد الفاطمي

من عبد الله ووليه ،عبد الله أبي محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل، الملك، الناصر، صلاح الدين يوسف بن أيوب، أدام قدرته وأعلى كلمته.

أما بعد، فالحمد لله متصرف الأقدار ومشرف الأقدار،... والحمد لله الذي اختار لأمير المؤمنين ودلّه على مكان الاختيار... ولم يكن ينسى الحادثة في السيد الأجل الملك المنصور رضي الله عنه وأرضاه، إلا ما نظر فيه أمير المؤمنين بنور الله من اصطفائك أيها السيد الأجل الملك الناصر:- أدام الله قدرتك- لأن تقوم بخدمته بعده، وتسد في تقدمه جيوشه مسدّه ، وتقفوا في ولائه أثره ، ولا تفقد منه إلا أثره،...

واستوجب مقعد صدق بما اعتقده من تأدية الأمانة له وحمله....وحتى أراك أيها السيد الأجل الملك الناصر قد أقررت ناظره، وشددت سلطانه وسددت مكانه...

ولما رأى الله تقلب وجه أمير المؤمنين في سمائه ولاه من اختارك قبله ، وقامت حجته عن الله باستكفائك وزيرا له ووزيرا للملة ، وعزم له أن قلدك تدبير مملكته الذي أعرقت في إرثه وأغرقت في كسبه ، ومهد لك أبعد غاية في الفخر بما يسير لك من قربه، ولقد سبق أمير المؤمنين إلى اختيارك قبل لسانه بضمير قلبه...[1]

[1] القلقشندي: مصدر سابق، ج10،ص91ومايليها.

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أ. المصادر:

1. ابن الأثير، أبي الحسن علي أبي الكرم (ت630):

- الكامل في التاريخ، ط4، مر: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت،2003، ج09، ج10.
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، تح: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة ،1963.

2. ابن الأزرق، أبي عبد الله(896هـ):

- بدائع السلك في طبائع الملك، تح: علي سامي النشار، دار السلام، القاهرة ،2008،ج1.

3. ابن إياس، محمد بن أحمد:

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطابع الشعب، الإسكندرية ، 1960، ج1.

4. ابن ثغري بردي، جمال الدين أبي العباس المحاسن يوسف (ت874هـ):

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992 ،ج5،ج6.

5. ابن جبير، أبو الحسين بن أحمد (ت614هـ):

- تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار: دار صادر، بيروت، [د.ت].

6. سبط ابن الجوزي ، شمس الدين المعظم يوسف (ت654هـ):

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تح: إبراهيم الزيبق ، دار الرسالة العالمية، بيروت،2013،ج20،ج21،ج22.

7.ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين (ت681هـ):

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، [د.ت]، ج1،ج2،ج3،ج4،ج7.

8.الداوداري، أبي بكر بن عبد الله بن أبيك:

- كنز الدرر وجامع الفرر (الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية)، تح:صلاح الدين المنجد، منشورات المعهد الألماني للآثار، القاهرة، 1961،ج6.
- كنز الدرر وجامع الغرر(الدر المطلوب في أخبار في أيوب)، تح: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1972، ج7.

9.الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748هـ):

- تاريخ الإسلام ووفقيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1995،ج37، ج38،ج39،ج42.
- دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، 1999،ج02.
- سير أعلام النبلاء ، تح: بشار عواد معروف ومحي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة،1984، ج21.ج22.
- طبقات القراء، تح: أحمد خان، مركز الملك فيصل والدراسات الإسلامية، [د.م]،1997، ج2،ج3.
- المعين في طبقات المحدثين، تح: محمد زينهم محمد عزب، دار الصحوة، [د.م]، 1987.

10.السبكي، تاج الدين أبي نصر(ت771هـ):

- طبقات الشافعية الكبرى، تح: عبد الفتاح أنجلو ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة،[د.ت]، ج4.

11.السيوطي، حلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ):

- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1967،ج1.

12. أبي شامة، شهاب الدين بن إسماعيل (ت665):

- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، دار الكتب العلمية، 2002،ج1،ج2،ج3،ج4.

13. ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف (632هـ):

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية(سيرة صلاح الدين الأيوبي)، ط2، تح: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة،1994.

14.الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك(ت764هـ):

- الوافي بالوفيات ، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000،ج18.

15.ضياء الدين ابن الأثير، أبو الفتح نصر الله (ت637هـ):

- الوشي المرقوم في حل المنظوم، تح: يحيى عبد العظيم، شركة الأمل، 2004، .

16.عبد اللطيف البغدادي:

- الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، [د.م]، 1998.

17.ابن العربي، أبي بكر محمد بن عبد الله (ت543هـ):

- أحكام القرآن ، ط3 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003 ، ج3.

18.العماد الأصفهاني، أبي عبد الله محمد بن حامد(ت597هـ).

- حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس المسمى الفتح القسي في الفتح القدسي، دار المنار، [د.م]، [د.ت].

- سنا البرق الشامي من كتاب البرق الشامي،تح: فتيحة البزاوي، مكتبة الخانجي، مصر، 1979، ج1.

19.ابن العماد، شهاب الدين الحنبلي (ت1089هـ):

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح : عبد القادر الأناؤوط ، ومحمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير،1989،ج6.

20. الغزالي، أبي حامد بن محمد(ت505هـ):

- أحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت ، 2005.

21. القاضي الفاضل، مجير الدين عبد الرحيم البيساني (ت596هـ):

- رسائل القاضي الفاضل، تح: علي نجم عيسى، دار الكتب العلمية، بيروت،2005.

22. القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي (ت624هـ):

- أنباه الرواة على أنباه النحاة ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، مؤسسة الكتب الثقافية ، القاهرة، بيروت،1986، ج4.

23. ابن القلاسني، أبي يعلى حمزة.

- ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين،1908.

24. القلقشندي، أبي العباس أحمد(ت821هـ):

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، دار الكتب المصرية، القاهرة،1914-1922- ،ج1،ج3،ج،6،ج09،ج10.

25. ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل(ت774هـ):

- البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر [د.م]، 1998، ج16.
- البداية والنهاية، ط7، مكتبة المعارف، بيروت،1977،ج13.
- طبقات الشافعية الكبرى، تح: عبد الحفيظ منصور، دار المدار الاسلامي، بيروت،2004،ج1.

26. الماوردي ، أبي الحسن علي محمد بن حبيب(ت45هـ):

- نصيحة الملوك ، تح: خضر محمد، مكتبة الفلاح، الكويت،1983.

27. المقريزي، أبي العباس أحمد بن علي(ت845هـ):

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تح: جمال الدين الشيال، منشورات وزارة الأوقاف المصرية،1996،ج3.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت،1997، ج1.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، شركة الأمل للطباعة والنشر، الإسكندرية، 2002،ج2.

28. المنذري ، أبو عبد العظيم (ت656هـ):

- التكملة لوفيات النقلة، ط3 ، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984،ج2،ج3.

29. ابن مسير، تاج الدين محمد بن علي بن يوسف (ت677هـ):

- أخبار مصر، تح: أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة،[د.ت].

30.النعيمي ، عبد القادر بن محمد (ت978هـ):

- الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية، بيروت،1990، ج1.

31. النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت733هـ):

- نهاية الأدب في فنون الأدب ، تح: علي بوملجم ، دار الكتب العلمية[د.ت]، ج8.

32. ياقوت الحموي، شهاب الدين (ت626هـ):

- معجم الأدباء ، تح: أحمد فريد عيسى بك، دار المأمون، مصر، [د.ت]،ج14.
- معجم البلدان ، دار صادر، بيروت، 1977،ج1،ج3،ج4.

33. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب إسحاق (ت684هـ):

- البلدان ، دار الكتب العلمية، [د.ت].

34. اليمني ، عمارة نجم الدين أبي محمد (ت568هـ):

- النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، مطبع مرسو، شالون، 1897.

35.ابن الوكيل، يوسف الملواني(ت1131هـ):

- تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تح: محمد الششاوي، دار الآفاق العربية، القاهرة،1999.

ب.المراجع

- **الكتب:**

1. أومليل ، علي: السلطة الثقافية والسلطة السياسية ،ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،1998.
2. بدوي أحمد أحمد: أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر، القاهرة، 1996.
3. بولطيف لخضر: فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، دار الصديق، الجزائر،2015.
4. البيومي، محمد رجب: صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، دار القلم، دمشق،1998.
5. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط14، دار الجيل، بيروت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،1996،ج4.
6. حماة محمد ماهر: المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1978.
7. حمزة عبد اللطيف: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، دار الفكر الغربي، [د.م]، 1997.

8. دجاني هادية: القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني (526هـ-596هـ/1131م-1200م) دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين الأيوبي وفتوحاته، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، فلسطين، [د.ت].
9. الرفاعي، عبد الجبار: الفكر الإسلامي، دار الفكر الإسلامي ، دمشق،2000.
10. الزركلي خير الدين: الإعلام قاموس تراجم، ط15، دار العلم للملايين، بيروت،2002،ج3.
11. الزيات أحمد حسين: تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر، القاهرة،[د.ت].
12. زيان حامد زيان غانم: الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة، القاهرة، 1983.
13. سالم، سحر السيد عبد العزيز: بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية،1997.
14. الصغير، عبد المجيد: الفكر الأصولي وإشكالية السلطة في الإسلام، دار المنتخب العربي، بيروت،1994.
15. الصلابي، علي محمد: صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس،ط2، دار المعرفة، بيروت، 2008.
16. عاشور سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر،2010.
17. عزام سمير علي: حكم قراقوش الأمير المفتري عليه بهاء الدين قراقوش، دار البيان، لبنان،1999.
18. عزام عبد الرحمن: صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني،ط2، تر: قاسم عبده قاسم، دار بلو مزبري، قطر،2013.
19. العسلي، بسام: قادة: الحروب الصليبية المسلمون، دار النفائس، بيروت،2012.
20. فروخ عمر: الأدب العرب في المشرق، دار العلم للملايين، بيروت، [د.3ت].

21. فكري أحمد: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، مصر،1962.ج2.
22. قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت،1990.
23. كحالة عمر رضا: قبائل العرب القديمة والحديثة، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997.
24. كرد علي: خطط الشام،ط2،مكتبة النوري، دمشق، [د.ت]،ج6.
– مصر والشام في عصر الأيوبين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت،[د،ت].
25. مصطفى أحمد أمين: فنون النثر في العصر العباسي، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر،[د.ت].
26. المطوي محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، [د،م]،1982.
27. النجار حسن فوزي: الإسلام والسياسة بحث في أصول النظرية السياسية ونظام الحكم في الإسلام، مطبوعات الشعب ثقافة وعلوم، [د.م]، [د.ت].
28. يوسف جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى،ط3، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

ت. الدوريات

1. بن شوش مروان:"مساهمات القاضي الفاضل في الحياة العلمية بمصر وبلاد الشام (529هـ-586هـ/1135م-1200م)" مجلة الدراسات التاريخية ع19، 2015.

ث.الرسائل الجامعية

1. دجاني هادية راغب: "القاضي الفاضل عبد الرحيم البساني"، رسالة للحصول على درجة أستاذ علوم، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1961.

فهـــرس الأعلام والاماكن

فهرس الأعلام البشرية

-أ-

- إبراهيم الفاضلي ابن ربيعة 47.
- الأثير بن بنان 29
- أحمد بن طولون 26
- أحمد ابن عبد الرحيم 52
- أسد الدين شيركوه ج-ح73 -75-76-77-78-104
- الأسعد ابن مماتي 36
- إسماعيل ابن نور الدين60-86-87
- الأفضل شاهنشاه 34-40-42
- الملك الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبي 97-98-99-100
- ألب أرسلان 16-17-39
- أموري (ملك الفرنج) 74-75

-ب-

- أخو البدر مفضل 51
- أبو البركات أبي سلامة القضاعي 48
- أبو البقاء القيسراني 85
- بهاء الدين قراقوش 82-100.

-ت-

- تقي الدين اليلداني 51
- أبي تمام 23-27

-ج-

- جرديك 77
- أبو الجود غياث المصري 47

-ح-

- الحارث البساسيري 39
- ابن حديد 28-29
- حسام الدين لؤلؤ 86

-خ-

الموفق ابن الخلال د- 25-26-27-29-74-75-82-103

-ر-

- رزيك ابن الصالح 69-70-71-72-106
- الرسول صلى الله عليه وسلم 11-17-77
- رينالد دي شاتيون 92

-ز-

- زيادة ابن عمران 47

-س-

- ست القصور 37-103
- سديد الدين عثمان التزمنتي 47
- ابن سناء الملك 32-44
- سنجر ابن ملك شاه39 -40.

-ش-

- شاور ابن سعدي 47-41-70-71-72-73-74-75-76-77-104
- شجاع ابن شاور (الكامل) 70-72-73-74-75-77-78-104
- ابن شداد 97
- شرف الدين أبي عصرون 87-89
- شمس الدين أبو جود عبد الله الموصلي 52
- شمس الدولة تورنشاه 81-86
- شمس الدين الخلافة 45
شمس الدين الذهبي52

-ص-

- الصاحب ابن العباد ج-18-19
صلاح الدين الأيوبي أ ب ز ح 21-24-30-33-36-43-45-46-49-50-51-53-55-56-57-59-60-61-62-63-64-65-73-76-77-78-79-80-81-83-84-85-86-87-88-89-90-91-92-93-94-95-96-97-98-99-101

-ض-

- ضرغام 37-41-78-73
- ضياء الدين ابن الأثير25-78-99
- ضياء الدين ابن تاج الدين الشهرزوري 89

-ط-

- طغرلبك 39
- طلائع ابن رزيك 37-38-103
- طي ابن شاور73

-ظ-

- الظافر العبيدي 29
- الطاهر غازي 98
- ظهر الدين طغتكين 40-42

-ع-

- الملك العادل52-60- 70-97-99-100-101
- العاضد العبيدي ح37- 38-49-69-71-76-77-78-79-81-82-83-84-85-103
- عبد اللطيف البغدادي 44-45
- عثمان ابن صلاح الدين 61-66-98-99-100-101
- عز الدين 37
- علي ابن السلار 38
- علي ابن نجا 26-86
- العماد الأصفهاني 31-44
- عماد الدين زنكي 23-34-35-40
- عمارة اليمني 31-72-73-77
- عمر بن عبد العزيز 14
- ابن عنين 32
- ابن العميد 17 – 18- 54
- عيسى الهكاري 79-89-90-94
-

-ق-

- ابن قادوس 27-28
- أبو القاسم سلامة القضاعي 47
- أبو القاسم الشاطبي 46
- القاضي الأشرف 21 -23
- القاضي السعيد21-
- القائم بأمر الله 40

-ك-

- كمال الدين الشهرزوري 88-89
- الكيزاني 26

-م-

- محمد بن مكي الحموي 45
- محي الدين ابن زنكي 58
- المستضيء العباسي 83-84-96
- ابن مصال 37
- معاوية ابن أبي سفيان 11
- ابن المقدم 87-88
- ملك شاه 17-39
- ملهم أخو ضرغام 73-74
- مؤتمن الخلافة 79-80-83
- مؤيد الدولة 18- 19
- ميكائيل ابن سلجوق 17

-ن-

- نجم الدين أيوب 85
- النظام محمد بن مسلم 47
- نظام الملك الطوسي د6-17-18
- نور الدين زنكي أ-ج -35-55 -56-73-74-75-76-77-78-83-84-85-104-103

فهرس الأماكن

-أ-

- أصبهان 17-18
- أنطاكية 34
- الأسكندرية 23-28-37-57-59-69-70-75-76

-ب-

- بصرى 87-92-98
- بعلبك 98
- بغداد 39-56-57-59-97-97-106
- بلبليس74-75
- بيت المقدس 22-34-37-56-95-96-98
- بيروت 95
- بيسان 21-22

-ج-

- جبيل 96

-ح-

- حطين 36-56-63-92-93-94
- حلب 39-88-91-98
- حماة 88—98
- حمص 88

-خ-

- خرسان 39

-ف-

- الفسطاط 26-28-76
- فلسطين 22

-د-

- دمشق هـ-25-35-37-40-41-43-46-51-87-88-92-93-76-98-99-106
- ديمياط 28

-ر-

- الرملة 22-58-90-91
- الرها44-35-40-103

-س-

- سورية 46

-ش-

- الشام 22-23-29-30-39-43-69-73-75-88-90-91-94-106
- الشوبك 84-85-92-98

-ص-

- صرخد 99-100

صقلية 58

صور 36-96

-ط-

- طبرية 92-93

طرابلس 36-75

-ع-

- العراق 29-46

عسقلان ج-21-22-23-24-25-26-28-34-36-35-37-90-95-102

عكة 44-56-57-63-94-96-97-105

-ق-

- القاهرة 25-26-27-28-37-40-41-44-45-46-49-50-69-71-73-44-75-76-78-80-83-100-101-102-104-105
- قوص71-73
- قيسارية 95

-ك-

- الكرك85-86-91--92-98

-م-

- مصرم ج د ز-22-23-25-26-27-28-34-35-39-40-41-44-46-58-59-64-68-74-75-78-80-81-82-83-84-85-86-87-88-91-97-98-100-104-105
- مكة58
- الموصل41-91

-ن-

نابلس 94

-ي-

- اليمن 85

فهـــرس المحتوى

فهرس المحتوى

- **الموضوع**.....الصفحة
- شكر وعرفان
- الإهداء
- **المقدمة** ..... أ-ط
- **الفصل التمهيدي**: جدل العلم والسياسة في الإسلام..... (11-19)
- **الفصل الأول**: ترجمة لحياة القاضي الفاضل.....(21-41)
- **المبحث الأول**: شخصية القاضي الفاضل..... 11
- **أولا**: نسبه ومولده نشأته 21
- 1- نسبه.....21
- 2- مولده ونشأته 23
- **ثانيا**: هجرته إلى مصر وأساتذته 25
- **ثالثا**: صفانه ووصف هيئته..... 30
- **المبحث الثاني**: واقعه السياسي..... 24
- **أولا** : الحروب الصليبية..... 34
- **ثانيا**: التفكك والصراع داخل الخلافة الفاطمية..... 37
- **ثالثا**: التفكك والصراع داخل الخلافة العباسية..... 39
- **الفصل الثاني**: القاضي الفاضل عالما وأديبا .....(43-67)
- **المبحث الأول** : إسهاماته العلمية..... 33
- **أولا**: عنايته بالعلم والعلماء..... 43
- **ثانيا**: تأسيس المدرسة الفاضلية 46
- **ثالثا**: تأسيس مكتبة المدرسة الفاضلية..... 49
- **رابعا**: دار الحديث الفاضلية..... 42
- **المبحث الثاني** : مصنفاته..... 53
- **أولا**:رسائله 53
- **ثانيا**: شعره..... 62

- **الفصل الثالث**: القاضي الفاضل سياسيا ومدبرا .....(69-101)
- **المبحث الأول**: زمن الدولة الفاطمية 69
- **أولا**: رئيس ديوان الجيش 69
- **ثانيا**: رئيس ديوان الإنشاء..... 78
- **المبحث الثاني**: زمن الدولة الأيوبية..... 84
- **أولا**: القاضي الفاضل وتأسيس الإدارة الأيوبية بدمشق 84
- **ثانيا**: القاضي الفاضل والجهاد ضد الفرنج..... 90
- **ثالثا**: القاضي الفاضل بعد صلاح الدين..... 99
- **الخاتمة**..... 103
- **الملاحق**.....108
- **قائمة المصادر والمراجع** 113
- **فهرس الأعلام البشرية**.....122
- **فهرس الأماكن**.....125
- **فهرس المحتوى**.....128-129

بحمد الله تم